

تقريب التراث

(٢)



الحكم العطائية

لابن عطاء الله السكندري

شرح

ابن عباد التفري الزندي

إعداد ودراسة
محمد عبد المقصود هيك

إشراف ومراجعة
الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام — شارع الجلاء — القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ — تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

غلاف

حسين ابو زيد

المحتويات

صفحة

تصدير ٥

مقدمة ٨

ابن عطاء الله السكندري وعصره ١٣

حياة ابن عطاء الله التصوفية ٢٠

ابن عباد النفري الرندي ٢٥

مصنفات النفري الرندي ٣٣

نظرة في الحكم العطائية ٣٦

نصوص في الحكم العطائية ٤٥

تقريب الحكم وشرحها ٨٩

تصدير

هذا هو الكتاب الثانى فى سلسلة (تقريب التراث) ، وهو من أجل الأعمال التى قدمها سلف هذه الأمة ، قام على إنجازها إمامان من أئمة التصوف الإسلامى ، أولهما : ابن عطاء الله السكندرى ، الذى أبدع صياغة تجربته التصوفية فيما أسماه (الحكم) ، وثانيهما : ابن عباد النفزى الرندى فى شرحه لهذه الحكم ، وقد قيل بحق فى شأن هذا الشرح : « مما من الله به على العباد شرح الحكم لابن عباد » .

وقد وقع اختيارنا على هذا الكتاب باعتباره قمة ما بلغته التجربة الصوفية من اقتدار فى التعبير الأدبى ، فالحكم فى رأينا شاهد على أن صاحبها لم يكن مجرد صوفى يردد عبارات رمزية ، تخفى وراءها شطحاته الفكرية ، بل كان أديباً واسع الأفق ، مستنير الفكر ، متنوع الاهتمام ، يعيش هموم مجتمعه الأخلاقية ، ويعبر عنها تعبيراً أخذاً ، يقوم على المعنى العميق ، والصياغة الدقيقة ، إلى جانب الإحساس المرفه بجماليات اللغة ، والاستخدام الأمثل لتنوعاتها .

وقد حرص التقريب على أن يقدم ضمن هذا الكتاب (متن الحكم) ليسهل على القارئ إدراك هذه الصور البديعة ، وربما حفظها ، لتصبح من بعد جزءاً من رصيده ، يتمثل بها فى المواقف المختلفة ، التى يحسن فيها تلخيص المناقشة ، أو إدهاش السامع برأى ناصع ، وفكرة هادية ، وقول راق .

والحق أن التصوف فى هذه الحكم يبدو منهجاً فى التوحيد الخالص ، بلغ الذروة التى عاشها أئمته وأقطابه ، وكأنهم نوع خاص من البشر ، يتميز بقدرة إيمانية ، وسلوك أخلاقى لا يقدر على تحقيقهما أكثر الناس .

ولارىب أن أئمة التصوف الأولين هم أئمة التوحيد الصادق ، والإيمان العميق ، فقد توجهوا إلى الله بكلياتهم ، وأخلصوا له النية والقول والعمل ، حتى بلغوا فى ذلك كله المثل الأعلى الذى تطمح إليه هم الموحدين .

وأقصد بأئمة التصوف هنا أهل التقوى من المتصوفة السلوكيين — ولا أركى على الله أحداً — لا أهل الزيغ من أصحاب الأفكار الشاطحة ، والمواقف الغالية ، فهؤلاء لا يسلم لهم قول ولا عمل ، لأن أقوالهم ألغاز تنتهى دائماً إلى الحلول ، وتهوى بغباء إلى قاع الشرك والتجسيد ، نتيجة إعتناقهم بعض الآراء الفلسفية الإغريقية ، ولأن أفعالهم شاذة تتجاوز قانون العقل ، وتحاول إلغاء منطق الفطرة ،، وتعطيل الشرائع والتكاليف .

إن أئمة التصوف السلوكي كانوا — كما يبدون في هذا الكتاب — أعظم المؤمنين توحيداً وهو إتجاه محمود لا غبار عليه من الناحية الشرعية ، لأنه يمثل اجتهاداً في اتباع القرآن والسنة ، يأخذ النفوس بالعزائم ، ويروضها على تحمل المكاره ، وإيثار الزهادة في الدنيا ، طمعاً في جنة الله ، وغراماً بحبه ، ووصولاً إلى رضوانه .

وحسبنا أن نقرأ بعض الحكم العطائية ، في هذا الشرح الجليل ، لنخرج بهذا الحكم المنصف هؤلاء العباد الصادقين :

- * الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها .
- * ما نفع القلب شيء مثل عُرلة يدخل بها ميدان فكر .
- * من علامات النجاح في النهايات الرجوع إلى الله تعالى في البدايات .
- * من أشرقت بدايته أشرقت نهايته .
- * لا صغيرة إذا قابلتك عدله ، ولا كبيرة إذا واجهك فضله .
- * خف من وجود إحسانه إليك ، ودوام إساءتك معه ، أن يكون ذلك استدراجاً لك من حيث لا تعلم (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) .
- فهذه الكلمات العذبة لا تصدر إلا عن فطرة نقية ، وقلب خائف وجل ، ونفس مطمئنة راضية مرضية ، ولذلك بلغ أصحابها مكانة عالية حفظها لهم التاريخ ، وهم بحول الله ومشيعته (لهم ما يشاءون عند ربهم) .

غير أن ذلك لا يمنعنا من أن نسجل أن التصوف الذي تألق على عهود أقطابه وأئمته قد إنحدر على أيدي الاتباع والمريدين ، حين انصرف هؤلاء عن الله وتوجهوا نحو أشخاص شيوخهم ، وسير أئمتهم ، فأصبح شغلهم الشاغل أن يجدوا

الأقطاب ، ويسردوا سيرهم وكراماتهم ، بكل ما ضمت من زيادات وأكاذيب ،
وتصورات خرافية لا أصل لها ، بل ربما نسبوا إليهم ما يحيله العقل ، ويأباه الشرع ،
وبذلك غرق المتصوفة أو أهل الطرق في العصور المتأخرة في مستنقع الشعوذة
والحمول ، وصارت بركة الشيخ في موضع رجاء الله ، (وسره البائع) بديلاً عن
الاجتهاد في العمل . وفشت هذه المعتقدات والبدع في الناس حتى جعلوا من الأولياء
متخصصين في حل نوعيات من المشكلات ، وتحقيق الكرامات ، فواحد للمحاكم ،
يسمى (قاضى الشريعة) ، وآخر للمدد ، وثالث للعواجز ، ورابع للتائهين في
الرحام ، وخامس لتيسير الحمل على النساء العقم ، وكثير من الأتباع يسندون إلى
شيوخهم العلم بالغيب ، وهكذا ...

وكل ذلك يسجل في الواقع ثلثة في العقيدة من حيث كان انصرافاً عن الله
سبحانه إلى بعض مخلوقاته ، والله سبحانه يقول لنبيه ﷺ : « قل لا أملك لنفسي
نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله » ، فكيف بمن هم دون النبي قدراً وقرباً وطاعة؟!
إن التصوف الاسلامى بحاجة إلى تنقية وتصفية ، وذلك لا يتم إلا بالرجوع
إلى المصادر الأصيلة ، التى تلقن الناس دروس التوحيد والإخلاص فيه ، وفى مقدمتها
القرآن والسنة ، وما جاء على نهجها من مؤلفات الصالحين من علماء الأمة ، كهذا
الكتاب الذى نقدمه إلى قرائنا الأعزاء ، ونحن نعهدهم بأن نلتئم لهم بعض المصادر
التراثية التى تعمق هذا الاتجاه ، فلعلنا نُسهم فى خلق مناخ من الفكر الإسلامى
المعتدل ، الذى لا ينحرف يميناً أو يساراً ، وفى هذا المناخ تنمو شخصية المسلم على
مبادئ عملية ، وسلوكيات نافعة ، ومنهج تربوى ينمى الإيجابيات ، وينفى
السلبات ، ويخلص الأمة من انقسامات المذاهب ، والطرق ، والطوائف ، التى
فتكت بالماضى والحاضر ، ويؤلفها على طاعة الله ، وفعل الخير ، أمراً بمعروف ، ونهياً
عن منكر ، كما يرتقى بعقل المسلم وهمته إلى مستوى القضايا الكبيرة والحيوية ، بعيداً
عن الجزئيات والتفاصيل ، ورواسب التاريخ . والله من وراء القصد ، يسدد خطانا
على صراطه المستقيم .

عبد الصبور شاهين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله القائل في كتابه الكريم : يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الأبواب (١) .

والصلاة والسلام على رسول الله القائل : أدبني ربي فأحسن تأديبي ، إنما بعث لأتم مكارم الأخلاق .

وبعد :

فيسعدني أن أقدم هذه المختارات من كتاب ” الحكم ” لابن عطاء الله السكندري

وهي من شرح ” ابن عباد النَّفَرِي الرُّندِي ”
وكم وددت أن أقدم ” الحكم ” كلها كاملة ، ولكن حجم الكتاب ، ومتطلبات النشر — فرضا عليّ أن أكتفي بمختارات منها .

ولا شك أن للحكم العطائية قيمة تصوفية كبرى ، الى جانب قيمتها الأدبية والفنية ؛ فهي من أعظم ما صُنِّف في علم التصوف ، وهي مثل عال للفكر الصوفي النقي ، الخالص من الشوائب ، المتلائم مع الكتاب والسنة ، المتواءم مع أقوال الصحابة وسلوكهم ، وهي إلى جانب هذا تضيء لنا صفحات مشرقة من التصوف الإسلامي ؛ ذلك أنها تخاطب وجدان المسلم ، وتسمو بروحه ، وتطهر نفسه ، وتعلو بها إلى أسمى درجات النقاء والطهر ، والكمال الروحي ، وتخلصه من المادية البغيضة ؛ وبهذا يسمو الإنسان نفسا وروحا وخلقا وسلوكا ، فيرتفع فوق شهواته ، ويعلو بغرائزه ، فلا يكون عبدا لها .

(١) البقرة / ٢٦٩ .

كما أنه يتمسك بالقيم الروحية النبيلة ، والمثل العليا الفاضلة التي ترفع من قدره ،
وتصلح نفسه .

ومن هذا المنطلق ينأى التصوف عن السلبية ، ويصبح سلوكا إيجابيا ، يسمو
بالفرد ، ويقوم من سلوكه ، ويرقى بالمجتمع ، ويوجهه نحو حياة أفضل .

أما قيمتها الأدبية والفنية — فقد جاءت على أعلى مستوى أدبي : صياغة وأسلوبا
وفكرا ولغة ؛ فهي نموذج يحتذى للأدب العالى الهادف ، المحكم الصياغة ، الرفيع
الأسلوب ، الجيد الفكرة ، السامى الموضوع .

والحكم العطائية إلى جانب قيمتها الصوفية ، وقيمتها الأدبية والفنية — توضح
لنا معالم شخصية هامة من شخصيات التصوف بعامة ، والتصوف المصرى بخاصة .
هى شخصية ” ابن عطاء الله السكندرى ” .

وقد سرت فى تقديم هذا العمل ، وعرض هذه المختارات على النهج التالى :

أولا : ترجمة للمؤلف الأصيل لهذه الحكم ” ابن عطاء الله السكندرى ”
اعتمدت فيها أساسا على ما كتبه الأستاذ الدكتور ” أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ”
من خلال مؤلفه ” ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ” .
وقد شملت النقاط التالية :

- أ — اسمه ولقبه ونسبه وأسرته .
- ب — مولده ونشأته بالإسكندرية ، وطلبه للعلم .
- ج — اشتغاله بالتدريس بالقاهرة .
- د — خصائص عصره من الناحية الدينية .
- هـ — عصره من الناحيتين السياسية والاجتماعية .
- و — وفاته وقبره ومسجده .
- ز — مكانته باعتباره عالما وصوفيا .
- ح — حياته التصوفية ، ودوره فى الطريقة الشاذلية ، وفى التصوف الإسلامى .

ثانيا : ترجمة لشارح الحكم ” ابن عباد النَّفْزِي الرُّنْدِي “ .
أوجزت فيها ما كتبه الدكتور ” أبو الوفا الغنيمي التفتازاني “ في بحثه عن ” ابن
عباد النفزي الرندي “ بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (المجلد
السادس ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م) .
وقد تناول هذا البحث ما يأتي :

- أ — اسمه ولقبه ونسبه
- ب — مولده ونشأته
- ج — دراسته للعلوم الدينية ، وسلوكه طريق التصوف
- د — الطريقة الشاذلية ، ودور ” الرندي “ فيها ، ومدى تأثيره بها .
- هـ — جوانب من حياته الخاصة وأخلاقه .
- و — توليه الخطابة والإمامة — وفاته وقبره — تلاميذه .
- ز — مصنفات ” الرندي “ — خصائصها — قيمتها التصوفية .

ثالثا : تعريف وتقديم للحكم العطائية
رجعت فيه كثيراً إلى كتاب ” ابن عطاء الله السكندري “ للدكتور التفتازاني
وقد تناول ما يأتي :

- أ — تصنيفها — عددها .
- ب — خصائصها الفنية والأدبية — مدى الترابط بينها .
- ج — موضوعاتها .
- د — خصائصها التصوفية وقيمتها .
- هـ — شروحها — نظمها — ترتيبها — أهميتها .

رابعا : عرض نصوص الحكم : كل حكمة منها مستقلة محققة مرقمة .

- خامسا : تناولت شرح ابن عباد الرندي للحكم بالطريقة الآتية :
- إبراز كل حكمة مختارة بصورة مستقلة ، محققة مضبوطة بالشكل .
 - شرح ما فيها من لغويات ومصطلحات صوفية .

- أعقبْتُ ذلك بنص ما قاله ” ابن عباد “ في شرحه للحكم مراعيًا وضع علامات الترقيم والتنصيص في كلام ” ابن عباد “ .
- توثيق ما في نص ابن عباد من آيات قرآنية ، وشرح الغامض من الألفاظ والعبارات ، وتعريف موجز لبعض الأعلام .
- بعد هذا كتبت تعقيبًا على كل حكمة يوضح معناها بإيجاز ، ويبين ما تهدف إليه ، ويشير إلى ما يتفق معها من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، ونصوص شعرية . وقد اعتمدتُ في هذا على ما وقفت عليه من شروح للحكم منها :
- شرح ” ابن عباد النفزى الرندى “
- شرح المحقق شيخ الإسلام الشيخ ” عبد الله الشرقاوى “
- شرح الشيخ ” أحمد زروق “ ، تحقيق الشيخ ” عبد الحليم محمود “ دار الشعب .
- شرح الشيخ ” عبد المجيد الشرنوبى الأزهرى .
- إيقاظ الهمم في شرح الحكم ” تأليف العارف بالله ” أحمد بن محمد بن عجيبة الحسينى “
- شرح الحكم المسمى ” من عطاء الله “ للشيخ ” محمد بن مصطفى بن أبى العلا “

ومن المراجع :

- ١ — ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه : الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى .
- ٢ — صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد : (المجلد السادس ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م)
- ٣ — التنوير في إسقاط التدبير : ابن عطاء الله السكندرى
- ٤ — لطائف الأسرار : محبى الدين بن عربى
- ٥ — مختصر تفسير ابن كثير : اختصار وتحقيق محمد على الصابونى .
- ٦ — الرسالة القشيرية في علم التصوف : ” للإمام أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشبرى “

٧ — كشف اصطلاحات الفنون : محمد على الفاروق التهانوى (من مطبوعات
الهيئة العامة للكتاب) .

٨ — الموسوعة العربية الميسرة — دار القلم — ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .

٩ — المعاجم اللغوية — مجمع اللغة العربية .

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يهدينا سواء السبيل .
وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قدمت من هذه المختارات من ” الحكم
العطائية “ . وأن أكون قد أسهمت في تقريبها وتيسيرها بصورة تتيح للقارئ
المعاصر مزيدا من الفهم والاستيعاب لهذا اللون من تراثنا الخالد ، والله ولى التوفيق ،
وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

محمد هيكـل

ابن عطاء الله السكندري وعصره

اسمه ولقبه ونسبه وأسرته

اسمه : أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله
ويلقب بتاج الدين ، وبأبي الفضل وبأبي العباس .
وذكر المترجمون له أنه من أهل الاسكندرية ، وينتسب إليها فيقال :
” الإسكندرائي “ أو ” السكندري “ أو ” الإسكندري “ (١)

وانفرد ابن عجيبة بذكر اسمه ونسبه بشيء من التفصيل ، فقال : هو الشيخ
الإمام تاج الدين ، وترجمان العارفين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الرحمن ابن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله ، الجذامي
نسبا ، المالكي مذهباً ، الاسكندري داراً ، القاهري مزاراً ، الصوفي حقيقة ، الشاذلي
طريقة ، أعجوبة زمانه ، ونخبة عصره وأوانه ، المتوفى في جمادى الآخرة سنة تسع
وسبعمائة (٢).

وكون ابن عطاء الله جذامي النسب ، كما يذكر المترجمون له يعني أنه من أصل
عربي ، وأصل أجداده من الجذاميين ، الذين وفدوا إلى مصر ، واستوطنوا مدينة
الإسكندرية بعد الفتح الإسلامي .

ويبدو أن أفراد أسرته التي نشأ فيها كانوا مشغولين بالعلوم الدينية وتدريسها ؛
لأن جده الشيخ أبا محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندري كان فقيهاً معروفاً

(١) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه : أ د . أبو الوفا الغنيمي التفنازاني ، وهو المرجع الذي اعتمدنا عليه
هنا بصفه أساسية .

(٢) (إيقاظ الهمم في شرح الحكم) ج ١ ص ١٠ .

في عصره ، ولأن ابن عطاء الله نشأ كجده فقيهاً مشغولاً بالعلوم الشرعية ، وكان يطمح إلى بلوغ منزلته .

وهكذا يتبين أن " ابن عطاء الله " اسكندري المولد ، مصري الموطن ، عربي الأصل ، ولهذا قيمة كبرى من حيث إنه يمثل التصوف المصري في القرن السابع الهجري من ناحية ، ولأنه يدحض من ناحية أخرى ما يزعمه بعض الباحثين في التصوف الإسلامي من المستشرقين من أن العرب لم يكونوا أهلاً للتصوف الذي هو في زعمهم — نتاج للفكر الفارسي أو الهندي .

مولده ، ونشأته بالإسكندرية ، وطلبه العلم

ولد " ابن عطاء الله " بمدينة الإسكندرية ، حيث كانت تقيم أسرته ، وحيث كان جده مشغولاً بتدريس الفقه .

أما السنة التي ولد فيها فلم تعرف على وجه التحديد ، إذ لم يتعرض واحد من كتاب التراجم لذكرها .

ولد ابن عطاء الله ، ونشأ في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ .

وتميزت حياته بثلاثة أطوار :

طوران منها بمدينة الاسكندرية ، وطور ثالث وأخير بمدينة القاهرة :

فالطور الأول بمدينة الاسكندرية هو الواقع قبل عام ٦٧٤ هـ . وقد نشأ فيه " ابن عطاء الله " طالباً لعلوم عصره الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو وبيان ، وغيرها — على خيرة أساتذتها في ذلك الوقت .

أما الطور الثاني فهو يبدأ من سنة ٦٧٤ هـ وهي السنة التي صحب فيها " أبا العباس المرسى " وينتهي بارتحاله منها إلى القاهرة وفيه تصوف على طريقة الشاذلي ، ولم ينقطع في نفس الوقت عن طلب العلوم الدينية ، ثم اشتغل بتدريسها حيناً .

وأما الطور الثالث فيبدأ بارتحاله من الاسكندرية إلى القاهرة ليقیم بها ، وينتھى بوفاته بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ وهو طور نضوجه واكتماله كصوفى وفقیه .

وكانت مدينة الإسكندرية فى عصر ” ابن عطاء الله “ مركزا هاما من المراكز العلمية بالقطر المصرى وكان بها كثير من خيرة العلماء فى الفقه والتفسير والحديث والأصول وسائر العلوم العربية والاسلامية ، إلى جانب كونها زاخرة بجملة من شيوخ الصوفية الصالحين .

« فابن عطاء الله » قد نشأ بمدينة الاسكندرية فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وقد تتلمذ على كبار علماء عصره فى مختلف العلوم ، بحيث يمكن القول بأنه قد تهيأت له باتصاله بهم ثقافة لغوية فقهية أصولية شاملة إلى جانب ثقافته الصوفية التى تكونت له بصحبته لشيخه ” أبى العباس المرسى ” .

اشتغاله بالتدريس بالقاهرة

بعد وفاة الشيخ ” أبى العباس “ سنة ٦٨٦ هـ — أصبح ” ابن عطاء الله “ وارث علمه ، والقائم على طريقته ، والدعوة لها من بعده ، وكان قبل وفاة ” المرسى “ أيضا قد أصبح أهلا للتصدر لتدريس الفقه بمدينة الإسكندرية ، ثم رحل من الإسكندرية إلى مدينة القاهرة ليقیم فيها ، وليشتغل بالتدريس والوعظ ولعله استوطنها قبل وفاة شيخه — ” أبى العباس المرسى “ سنة ٦٨٦ هـ بقليل .

وقد تخرج على یدى ” ابن عطاء الله “ جملة من الفقهاء والصوفية ، من أشهرهم الإمام ” تقى الدين السبكى “ المتوفى ٧٥٦ هـ ، والد ” تاج الدين السبكى “ صاحب طبقات الشافعية الكبرى المتوفى ٧٧١ هـ .

وهكذا تتلمذ على ابن عطاء الله من هم فى طبقة الأئمة ، وهذا دليل على علو منزلته ، وعلى أن طريقته — كما يقول السيوطى — لم يكن بها أدنى عوج ، أى:إنها دائرة مع الكتاب والسنة .

عصره من الناحية الدينية ودوره في مدرسة الإسكندرية المالكية

تقع حياة "ابن عطاء الله السكندري" في النصف الأخير من القرن السابع الهجري ، وفي العقد الأول من القرن الثامن الهجري ، فما هي خصائص هذه الحقبة في مصر من ناحية المذاهب الدينية ؟ .

يحدثنا التاريخ بأن مذهب الشيعة كان قد اختفى بمصر منذ أواخر القرن السادس الهجري حين قضى عليه السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٤ هـ وسادت بمصر منذ ذلك الوقت مذاهب أهل السنة .

و حين نشأ « ابن عطاء الله » في النصف الثاني من القرن السابع الهجري — وجد المذهب المالكي الذي ينتمي إليه قد أصبح على قدم المساواة مع جميع مذاهب أهل السنة الأخرى ، كما وجد السيادة لعقيدة أبي الحسن الأشعري .

وكان للمذاهب الدينية السائدة في هذا العصر أثر كبير في اتجاه "ابن عطاء الله" الديني ، فقد كان مالكي المذهب من ناحية ، ومصطنعا عقيدة أبي الحسن الأشعري الكلامية من ناحية أخرى . وكان بمدينة الإسكندرية على عصره مدرسة فقهية مالكية معروفة أسسها الشيخ أبو الحسن الإيباري من أكبر علماء المالكية في عصره ، والمتوفى سنة ٦١٨ هـ .

وكان "ابن عطاء الله" من حيث هو فقيه مالكي منتسبا إلى هذه المدرسة . ثم كان في طور اكتماله كفقيه امتداد لهذه المدرسة السكندرية ، إذ كان يدرس في الأزهر العلوم الظاهرة من فقه وحديث وغيرها ، إلى جانب تدريسه للتصوف ، ووعظه للعامة من الناس .

وقد صنف "ابن عطاء الله" في فقه المالكية ، وذكر له السيوطي مصنفا فيه عنوانه " مختصر تهذيب المدونة للبرادعي " .

عصره من الناحيتين السياسية والاجتماعية

تقع حياة صوفينا السكندري كلها إبان حكم دولة المماليك البحرية التي كان أول ملوكها المعز أيك التركمانى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

وكانت الحياة السياسية في مصر في النصف الأخير من القرن السابع الهجرى — غير مستقرة من الناحية السياسية ؛ لأن التتار حاربوا سلاطين المماليك ، وهددوا مصر تهديدا مستمرا إبان الفترة الواقعة بين سنتى ٦٧٠ هـ و ٧٠٢ هـ .

وكذلك كان نظام الحكم استبدادياً ، ينفرد فيه السلاطين بجميع السلطات ، وكثيرا ما كانت تحدث الفتن والمؤامرات بين المماليك والسلاطين ، طمعا في الوصول إلى الحكم فلم يكن ثمة استقرار داخلى أيضا .

وكان سكان مصر ينقسمون إلى طبقتين متميزتين تماما : إحداهما : طبقة المماليك ، وهى الفئة القليلة من الحكام العسكريين الذين يمثلون الأرستقراطية الحربية ، والأخرى هى العامة من المصريين ، ولم يكن لهم أى صوت في حكم البلاد .

وإلى جانب هاتين الطبقتين طبقة ثالثة ، وهى وإن كانت من الشعب إلا أن أفرادها كانوا يتمتعون باحترام السلاطين ، وكانت هذه الطبقة هى الحائل الوحيد بين استبداد السلاطين والشعب ، وهى طبقة العلماء من الفقهاء والصوفية .

وكان ” ابن عطاء الله “ من حيث هو فقيه وصوفى بارز في عصره — من هذه الطبقة الثالثة ، فكان لا يخشى بأس هؤلاء السلاطين ، ويرى أن من أهم واجبات الصوفى — أمر الملوك بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر إذا كانوا على غير الجادة القويمة ، والرحمة بجميع العباد ، والشفقة بالفقراء ، والانتصار لهم ، وتقديهم على الأغنياء ، وأبناء الدنيا من الملوك والأمراء .

و « لابن عطاء الله » في هذا موقف مشهود ، يقول عن نفسه في ” لطائف المنن “... ولما اجتمعت بالسلطان الملك المنصور لا جين رحمه الله قلت له : ” يجب عليكم الشكر لله ، فإن الله قرن دولتكم بالرخاء ، وانشرحت قلوب الرعايا بكم ،

والرخاء أمر لا يستطيع الملوك تكسبه . ولا استجلابه ، كما يتكسبون العدل والجود والعطاء .

قال : وما هو الشكر ، قلت : الشكر على ثلاثة أقسام : شكر اللسان ، وشكر الأركان ، وشكر الجنان ، فشكر اللسان التحدث بالنعمة ، قال تعالى : ” وأما بنعمة ربك فحدث “ وشكر الأركان العمل بطاعة الله ، قال سبحانه وتعالى : « اعملوا آل داود شكرا » ، وشكر الجنان الاعتراف بأن كل نعمة بك ، أو بأحد من العباد هي من الله ، قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » فقال : وما الذى يصير به الشاكر شاكرا ، قلت له : إذا كان ذا علم فبالتبين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالبذل والإيثار للعباد ، وإذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ، ودفع الأضرار والأنكاد (١) .

فهذا موقف مشرف وقفه ” ابن عطاء الله “ من أحد سلاطين عصره ، ينطوى على علو همته ، وشدة زهده فى الدنيا ، وثقته بالله وبنفسه ، وهو صفحة مشرقة فى تاريخ التصوف المصرى ، تبين أن الشعب لم يكن يستكين دائما لسلطانيته المستبدين ، وإنما كان من أبنائه صوفى ” كابن عطاء الله “ يقف فى وجه السلطان منهم ، يعظه حين يراه محتاجا إلى الوعظ ، ويحثه فى عبارة بليغة على أن شكر نعمة الملك والجاه والسلطان — لا يكون إلا بتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس ، ودفع الأضرار والأنكاد عن الرعية .

وفاته وقبره ومسجده

بعد حياة خصصت للدعوة إلى طريق الله ، وتربية السالكين — توفى صوفينا السكندرى فى شهر جمادى الآخرة عام ٧٠٩ هـ .

وكانت وفاته بالمدرسة المنصورية بالقاهرة ، ويرجح الدكتور ” التفتازانى “ أن ابن عطاء الله قد تولى التدريس فى هذه المدرسة ، وأنه قد وافته منيته بها ، وذكر

(١) لطائف المنن : ص ١٢٨ : ابن عطاء الله : ص ٣٣ ، ٣٤ .

” المناوى “ أن ” ابن عطاء الله “ دفن بالقرافة بقرب بنى الوفا ، وقد حدد الاستاذ ” محمد رمزى “ موضع قبره فذكر ما نصه : قبر ” ابن عطاء الله السكندرى “ لا يزال موجودا بجبانة سيدى على ابى الوفا الكائنة تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليث .

ولابن عطاء الله مسجد ينسب إليه بالإسكندرية ، ذكره ” على مبارك “ فى خطه ، وقال : إنه مشهور بالإسكندرية ، واعتبره من المساجد الجامعة فيها .

مكانته

عرف المترجمون ” لابن عطاء الله السكندرى “ بعد وفاته مكانته كعالم وصوفى له خطره ، وهؤلاء المترجمون ليسوا جميعا من كتاب تراجم الصوفيه ، وإنما غالبيتهم من المؤرخين ، وكتاب طبقات الفقهاء . وليس من شك فى أن شهادات المؤرخين ، وكتاب طبقات الفقهاء أدل على منزلته من شهادات الصوفيه أنفسهم له ؛ لأنها تكون عادة أبعد عن التحيز ، والمبالغة فى ذكر المناقب . وقد تنبأ له أستاذه ” المرسى “ بهذه المنزلة التى أشار إليها المترجمون وكثير غيرهم من قبل ، لما كان يراه من ذكائه وملازمته له ، على نحو ما يدل عليه — إبان تلمذته عليه — قوله له : والله ليكونن لك شأن عظيم وقوله أيضا : ألزم فوالله لئن لزمتم لتكونن مفتيا فى المذهبين : يريد مذهب أهل الشريعة (أهل العلم الظاهر) ومذهب أهل الحقيقة (أهل العلم الباطن) . (١)

ويقول عنه صاحب الديباج المذهب : كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه ونحو وأصول وغير ذلك . وكان رحمه الله متكلمًا على طريق التصوف ، واعظًا انتفع به خلق كثير ، وسلکوا طريقه (٢)

وقال عنه تاج الدين السبكي المتوفى عام ٧٧١ هـ : إنه كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات ، وإن له قدما راسخة فى التصوف (٣)

(١) ابن عطاء الله ص ٣٧ — ٣٩ ، إيقاظ الهمم : ص ١٠

(٢) الديباج ص ٧٠ ابن عطاء الله ص ٣٨

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ١٧٦ — ابن عطاء الله ص ٣٨ .

حياة ابن عطاء الله التصوفية

كيف بدأت حياته التصوفية ؟

نشأ " ابن عطاء الله " منكرا على الصوفية ، وعلى ما يعبرون عنه من علوم وأذواق بحكم بيئته وثقافته الفقهية المتقيدة بظاهر النصوص الشرعية ، والتي لا تسيع التصوف من حيث هو علم لأحكام الباطن ، فقد كان جده لوالده أحد فقهاء عصره المنكرين على الصوفية أشد الإنكار .

ومن كان ينكر عليهم " ابن عطاء الله " من الصوفية الشيخ " أبو العباس المرسى " أشهر صوفية الإسكندرية في عصره .

لكن هذه الخصومة وهذا الإنكار أثار في نفسه عدة خواطر ، جعلته يحاسب نفسه ، وإذا بهذه المحاسبة تشتد وتعنف ، وإذا به يحس من نفسه أزمة شديدة ، خشى معها أن يكون منكرا على الشيخ بغير حق ، ولذا اندفع بشدة إلى مجلس " أبى العباس " ، ليتبين ما إذا كان محقا في إنكاره وخصومته أم ليس الأمر كذلك ، وبعد هذا اللقاء اقتنع " ابن عطاء الله " بأبى " العباس المرسى " وأقر بعلمه وفضله ، وذهب ما كان عنده من إنكار ، وانهر عقله بما سمعه من علوم الحقيقة ، ثم طرأت على " ابن عطاء الله " حالة من حالات الوجدان الخاصة ، وهى حالة من حالات القلق ، لا يدركه ، ولا يعرف سببه ، وهكذا لم يجد " ابن عطاء الله " بدا من أن يلتجئ إلى الله لعجزه وقصوره فهو لم يتوصل بعلمه وفكره إلى ما فيه غناء قلبه .

ومن ثم فكر في أن يعود إلى الشيخ " أبى العباس " مرة أخرى ، فهو رجل عارف بالله ، وبطرق السماء ، ويمكن أن يتخذة مثلا أعلى ، وهو الوحيد الذى يبدو أنه قادر على إزاله همومه وهواجسه ، وبعد هذا اللقاء بشيخه تحولت حالة القلق النفسى المبهم إلى حالة من الاستقرار النفسى .

وهكذا كان " أبو العباس " طبييا روحانيا عالما بكلمات القلوب وأمراضها وأدوائها ؛ ولذلك اتخذ " ابن عطاء الله " في حياته الصوفية مثلاً أعلى في العلم والأخلاق ، وقد صحب " ابن عطاء الله " شيخه « المرسى » اثني عشر عاماً وتلقى عنه الطريقة الشاذلية .

حياته سالكا

كان " ابن عطاء الله " ملازماً لشيخه ملازمة تامة على غير ما كان عليه بعض تلاميذ " المرسى " ولذلك كان شيخه يحبه كل الحب . وقد أثر التوجيه السلوكي من الشيخ " أبي العباس " في " ابن عطاء الله " تأثيراً كبيراً ، فقد شكل مذهبه الصوفي في قواعد السلوك بأسره ، وهكذا كانت حياته الصوفية العملية ذات أثر بعيد في تشكيل مذهبه النظري .

وقد شكل هذا التوجيه في الطريق مذهب " ابن عطاء الله " في إسقاط التدبير في السلوك ، وكان " ابن عطاء الله " في طور سلوكه يتمثل الشيخ " أبا العباس المرسى " أمام ناظره كلما حزنه أمر ، أو وقع في ضيق ، وليس هذا بغريب ما دام ينظر إلى شيخه باعتباره المثل الأعلى في السلوك والأخلاق . " فابن عطاء الله " كان نحاضاً في حياته الصوفية لما يخضع له السالكون من إشراف شيخ مرشد بصير عارف بالطريق إلى الله ، ولما يصنعونه من مجاهدة النفس ، ومحاربة الخواطر المذمومة ، بغية التوصل إلى الكمال الأخلاقي . وما زال شيخه يتدرج به في مدارج الطريق حتى غرس في قلبه المعرفة ، فأينعت ثمراتها ، وفاحت زهراتها ، وليس من شك في أن الوصول إلى المعرفة بالله كان أسمى ما وصل إليه " ابن عطاء الله " بل وكل صوفي سالك للطريق إلى الله .

حياته صوفياً كاملاً

وهكذا أصبح " ابن عطاء الله " على يدي شيخه " المرسى " صوفياً كاملاً ، واصل إلى الله تعالى عارفاً به . وبعد هذا قام " ابن عطاء الله " بدوره كصوفي

مرشد ، وكرس حياته للدعوة إلى طريق الله وتهذيب المريدين على طريقة الشاذلية ، وكان له فيها شأن أى شأن .

دوره فى الطريقة الشاذلية

تتلخص تعاليم الطريقة الشاذلية التى ينتمى إليها صوفينا ” ابن عطاء الله “ فى أصول خمسة هى : تقوى الله فى السر والعلانية ، واتباع السنة فى الأقوال والأفعال ، والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار ، والرضا عن الله فى القليل والكثير ، والرجوع إلى الله فى السراء والضراء .

وأبرز تعاليمها كذلك مبدأ القول بإسقاط التدبير والاختيار ، وهو الأصل الذى يبنى عليه الطريق كله ، وهو المبدأ الذى عمقه ” ابن عطا الله “ وجعله مذهباً كاملاً فى التصوف .

ولم يترك ” الشاذلى “ مصنفات فى التصوف ، ولا تلميذه ” أبو العباس المرسى “ وكل ما خلفاه جملة أقوال فى التصوف ، وبعض الأدعية والأحزاب ، وكان ” ابن عطاء الله “ هو أول من جمع أقوالهما ، ووصاياهما وأدعيتهما ، وترجم لهما ، فحفظ بذلك تراث الطريقة الشاذلية الروحية ، ولولاه لضاع هذا التراث ، ثم كان إلى جانب هذا أول من صنف مصنفات كاملة فى بيان آداب الطريقة الشاذلية النظرية والعملية ، ومن هنا جاءت أهميته البالغة فى الطريقة والتعريف بها ، وبقواعدها لكل من جاء بعده .

وإذا كان ” لابن عطاء الله “ هذه الأهمية الكبرى فى حفظ تراث الطريقة من الناحيتين النظرية والعملية ، فإن له أهمية أخرى من ناحية نشر الطريقة بمصر ، وبغيرها من الأقطار الإسلامية ، وبعبارة أخرى له أهمية فى سند الطريقة من حيث تلقين العهود حتى إنه يمكن القول بأن جميع طرق الشاذلية ترجع بالسند إلى شيخنا السكندرى .

دوره فى التصوف المصرى

يعد صوفينا السكندرى — إلى جانب كونه دعامة رئيسية فى بناء المدرسة الشاذلية — أبرز مثل للتصوف المصرى فى النصف الأخير من القرن السابع .
وحيثما نشأ ” ابن عطاء الله “ بالإسكندرية كان بها الكثير من الصوفية المصريين المشهورين بالزهد والورع كأبى القاسم القبارى المالكى الاسكندرانى المتوفى سنة ٦٦٢ هـ ، وياقوت الحبشى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، وشرف الدين محمد بن حماد البوصيرى الشاعر صاحب البردة المشهورة فى مدح الرسول ، والمتوفى سنة ٦٩٥ هـ ، وكان من تلاميذ ” المرسى “ — وفى عصر صوفينا ازدهرت حركة الصوفية كالطريقة الرفاعية ، والطريقة الأحمدية ، والطريقة البرهامية .

وقد شارك ” ابن عطاء الله “ أيضا فى ازدهار حركة الطرق الصوفية فى عصره ، فقد كان المبشر بالطريقة الشاذلية ، والقائم عليها من بعد شيخه ” المرسى “ . وقد أعلّى ” ابن عطاء الله “ من شأن التصوف المصرى ، حيث انتشرت تعاليمه وآراؤه فى البيئة المصرية فى حياته ، وأيضاً بعد وفاته فى كثير من الأقطار الإسلامية الأخرى ، على أيدي تلاميذه الذين تفرعت عنهم فروع الطريقة فيما بعد ، وعلى أيدي شراح مصنفه ” الحكم “ منذ وفاته إلى العصر الحاضر .

خصائص التصوف المصرى

ما يصدق على صوفية المصريين ، وتصوفهم يصدق على ” ابن عطاء الله “ .
— فهو غير قائل بوحدة الوجود ، ولا الحلول ، ولا الاتحاد بين الخالق والمخلوق ، وهو متقيد إلى أبعد حد بمذهب أهل السنة ، وهو فى هذا خاضع لمقتضى التصوف المصرى أولاً ، والتصوف الشاذلى المغربى ثانياً ، وكلاهما قائم على الكتاب والسنة .
— وتصوفه تصوف إسلامى خالص عن الآراء والمعتقدات الأجنبية ، فهو قد نشأ فى بيئة إسلامية خالصة ، وتصوف على طريقة الشاذلى التى لا أثر فيها لعناصر أجنبية ، وعاش فى مصر حيث كانت السيادة لمذهب أهل السنة .

— ويمكن القول بأن تصوفه تصوف إسلامي سنّي خالص ، يهدف أولا وأخيرا إلى التهذيب الخلقي والتربية الروحية ، وبأن فيه روحا مصرية خالصة من ناحية التعبير عن الأفكار ، وتصوير الحياة المصرية في عصره .

— ويعنى تصوفه عناية كبيرة بالجانب العملي الخلقي من التصوف .

أبن عبّاد الرّندى

حياه ومؤلّفاته

تمهيد

إن تاريخ التصوف الإسلامى فى الأندلس حافل بكثير من الشخصيات الهامة التى أثرت فى تاريخ الفكر الإسلامى والفكر المسيحى على السواء . ومن هذه الشخصيات ” ابن عباد النفزى الرندى “ الصوفى الأندلسى الذى كان ممثلاً للمدرسة الشاذلية الصوفية فى أسبانيا فى القرن الثامن الهجرى . إن مذهب ” الرندى “ الصوفى قد أثر بشكل واضح فى تصوف المشاركة ، وكانت له مكانة ممتازة عند أولئك المشاركة بالإضافة إلى ما تهيأ له من مكانة بارزة فى التصوف المغربى والتصوف المسيحى ، فى حياته وبعد مماته .

حياة الرّندى

اسمه ولقبه ونسبه — مولده ونشأته — دراسته للعلوم الدينية — سلوكه طريق التصوف — دوره فى الطريقة الشاذلية — بعض جوانب من حياته الخاصة وأخلاقه — توليه الإمامة والخطابة بمسجد القرويين بفاس — وفاته وقبره — تلاميذه .

* تلخيص : من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد . المجلد السادس ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م . بحث عن ” ابن عباد الرندى “ : أ . د أبو الوفا الغنيمى التفتازانى صفحات من ٢٢١ — ٢٤٥ .

اسمه ولقبه ونسبه

يذكر المترجمون لصوفينا الأندلسي : أن اسمه " محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن مالك بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن يحيى " الشهير " بابن عباد " وأنه يكنى بأبي بكر عبد الله النفزي ، ويذكرون أنه حميرى النسب ، وأنه " الرندي " بلدا .

مولده ونشأته

ولد ابن عباد برنده (RONDA) ، وهي مدينة واقعة بجنوب الأندلس في الطريق بين أشبيلية ومالقة ، وذلك في سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٢ — ١٣٣٣ م) وكانت " رنده " في ذلك الوقت مستقرة تماما تحت حكم المسلمين .
وقد نشأ " ابن عباد " في أسرة عريقة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وكان لبعض أفراد أسرته اشتغال بالعلوم الدينية .

دراسته للعلوم الدينية

وقد تولى أبوه وخاله أمر تنشئته وتعليمه منذ البداية ، فأخذ عن والده القرآن ، وأتم حفظه ، وله من العمر سبع سنوات ، وأخذ عن خاله علوم اللغة .
وتتلمذ " الرندي " أيضا " برنده " على أستاذ آخر هو الشيخ الفقيه الخطيب أبو الحسن علي بن الحسن الرندي .
وقد دفعه طموحه إلى استكمال تعليمه في سائر العلوم الإسلامية على أيدي أساتذة آخرين في غير بلده ؛ لذلك نجده يرحل إلى المغرب ويطوف ببلاده المختلفة ، ويتصل بأساتذة متعددين في العلوم الدينية على اختلافها .
كما أقام بتلمسان وفارس ؛ ليأخذ عن علمائها .

وقد انتمى " الرندى " إلى المدرسة الفقهية المالكية التى وجدت فى ذلك العصر فى المغرب ، وكانت حافلة بطائفة من العلماء المبرزين ، وقد تتلمذ " الرندى " عليهم فى علوم اللغة والفقه والأصول والكلام والمعقولات .

ونظرة إلى ما كان يقرؤه الرندى على أولئك الأساتذة الكبار من مصنفات — تظهر لنا ثقافة الرندى ومكوناتها التى تهيأت له قبل سلوك طريق التصوف . فقد قرأ فيما قرأ من كتب الفقه : " التهذيب " و " مختصر ابن الحاجب " ومن كتب الحديث : " الموطأ " ، وصحيح مسلم ، ومن كتب الكلام : كتاب " الإرشاد " لأبى المعالى الجوينى ، وكتاب " ابن الحاجب " الأصل ، وعقيدة ابن الحاجب ؛ وبهذا قد تهيأت له ثقافة دينية وعقلية ، تتضح من خلال مصنفاته فى التصوف ، فهى — إلى جانب ما تتضمنه من الأذواق الصوفية — متمشية مع الكتاب والسنة ، ولا تخلو من التعمق العقلى ، وقد استطاع بذكائه أن يحوز إعجاب أساتذته .

سلوكه طريق التصوف

وبعد دراسة الرندى للعلوم الدينية على هذا الوجه — نجده يتجه فجأة إلى سلوك طريق التصوف ، ولكن ما الدوافع التى جعلت الرندى يقبل على التصوف ؟ إن المترجمين له لم يتعرضوا لبيان هذه الدوافع ، وكل ما نجده لديهم عبارة للرندى قالها عن نفسه عندما توجه لصحبة الشيخ الصوفى " ابن عاشر " وأصحابه " بسلا " يقول فيها : قصدتهم لوجدان السلامة معهم .

فإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يعنى أن الرندى كان قبل صحبته لهم — يعانى من عدم وجدان الراحة والطمأنينة لسبب لا نعلمه .

ولعله كان قد طالع قبل ذلك بعض كتب التصوف ، وسمع عن أحوال بعض الصوفية وعن وجدانهم السلامة ، فأراد أن يهتدى بسلوكهم ، وذهب لبحث عنهم يكون موجودا من شيوخ التصوف بالمغرب ليسلك على أيديهم .

وكان على عصر " الرندى " بالمغرب مدارس صوفية يجمع أصحابها جميعا طابع واحد ، هو التقيد بالكتاب والسنة ، والبعد عن تيار التصوف الفلسفى ، ومن أولئك الصوفية المغاربة الذين تتلمذ عليهم الرندى الشيخ " أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر " المتوفى سنة ٧٦٣ هـ وكان صاحب مدرسة صوفية ، وأصله من الأندلس .

انتسب صوفينا إلى الطريقة الشاذلية ، ومن المرجح أن إنتسابه إلى هذه الطريقة ، جاء فى وقت متأخر بعض الشيء من حياته ، حينما أشار عليه بعض الأصحاب بأن يشرح لهم كتاب " الحكم " لابن عطاء الله السكندرى ، وبذلك لم يكن انتسابه إلى هذه الطريقة بالتلقى والسند ، وإنما كان بإقبال منه على دراستها ممثلة فى " حكم " السكندرى .

الطريقة الشاذلية

ودور الرندى فيها ، ومدى تأثيره بتعاليمها

تنسب الطريقة الشاذلية التى ينتسب إليها " ابن عباد الرندى " إلى الشيخ " أبى الحسن الشاذلى (٥٩٣ هـ — ٦٥٦ هـ) الذى ينتهى نسبه وسنده كما يقول المترجمون له إلى الحسن بن على بن أبى طالب . وكان مبدأ ظهوره ببلدة " شاذلة " وهى قرية من تونس .

وكان الشاذلى صوفيا عالما بالعلوم الدينية على إختلافها ، ومربيا مشهودا له بعلو المنزلة فى التصوف ، وكان له أتباع ومريدون كثيرون بالمغرب .

وقد هاجر الشيخ " أبو الحسن الشاذلى " إلى مصر حوالى سنة ٦٤٢ هـ وصحبه فريق من أتباعه منهم الشيخ " أبو العباس المرسى " المتوفى بالإسكندرية سنة ٦٨٦ هـ . وقد استقر بها هو وأصحابه . ولما توفى الشاذلى تولى أمر الدعوة من بعده تلميذه " ابو العباس المرسى " الذى صحبه من المصريين تلاميذ كثيرون ، أبرزهم " ابن عطاء الله السكندرى " (٦٥٨ — ٧٠٩ هـ) صاحب الحكم .

ويرجع الفضل في حفظ تراث الطريقة الشاذلية إلى شخصين :

أولهما : ” ابن عطاء الله السكندري “ الذي جمع أقوال ” الشاذلي “ و ” المرسى “ ووصاياهما وأدعيتهما وترجم لها ، فحفظ بذلك تراث الطريقة الشاذلية ، ثم كان إلى جانب هذا أول من صنف مصنفات كاملة في آداب الطريقة النظرية والعملية .

وثانيهما : ” ابن عباد الرندى “ الذي شارك بشرحه لحكم ابن عطاء الله السكندري في التعريف بآراء الشاذلية على نحو لم يسبق إليه ، وأتاح بهذا الشرح وبسائر مصنفاته الأخرى أن تذاع آراء الشاذلية في المغرب وفي الأندلس ، فكانت له بذلك أهمية كبيرة في انتشار الطريقة هناك ، وحفظ تراثها الروحي لكل من جاء بعده من الشاذلية المتأخرين في المغرب ، بل وفي المشرق أيضا .

جوانب من حياته الخاصة وأخلاقه^(١)

يذكر لنا المترجمون لصوفينا الأندلسي — أنه لم يتزوج قط — ولم يتخذ لنفسه أمة ، وكان يتولى أمر خدمته بنفسه . وقد اعتبر ” أسين بلاثيوس “ هذا مظهرا لعفته خصوصا وأنه قد أثر عن ” ابن عباد “ أنه كان يقول : إن الله قد أكرمه بعدم الرغبة في النساء ، حتى ولا في النظر إليهن من باب الفضول . ويرى الدكتور التفتازاني أن عدم زواج ” ابن عباد “ . هو تصرف شخصي ؛ حتى لا يتبادر إلى الذهن أن صوفية الاسلام يرونه — كما يراه صوفية المسيحيين — أمرا ضروريا في حياة التعبد وفي التزام فضيلة العفة .

فكثير من الشيوخ الشاذلية تزوجوا وأنجبوا ولم يروا في هذا ما ينقص من كمالهم كصوفية ، وإليك ما يقوله ” ابن عطاء الله “ في هذا الشأن : من أصول طريقهم

(١) نفح الطيب ، ج ٣ ص ١٧٦ ، سلوة الأنفاس ، ج ٢ ص ١٣٥ . عن بحث ابن عباد الرندى أ . د التفتازاني .

أن من دخلها وهو زوج فلا يطلق ، أو عزب فلا يتزوج حتى يكمل ؛ لترى أنهم يميزون أن يكون الصوفي متزوجا ، وواضح أنهم في إباحتهم الزواج مقتدون بشريعة الإسلام وسنة نبيه .

أما ما يتعلق بزيه ففي نفح الطيب رواية جاء فيها أن الرندي كان يلبس في داره المرقعة ، فإذا خرج سترها بثوب أخضر أو أبيض . (٢)

ولكن هناك رواية أخرى عن الرندي تصرح بأنه كان يلبس فاخر الثياب ، وهي أصدق في وصف الرندي باعتباره شاذليا ، ذلك أن الطريقة الشاذلية لا تهتم بلباس الفقراء ، ولا تدعو مريديها إلى جوع أو حرمان .

وكان " أبو الحسن الشاذلي " نفسه يلبس فاخر الثياب ، ويأكل أحسن الطعام ولا يرى في ذلك نقصا أو عيبا في سلوك طريق الله .

وكان " ابن عباد " في حياته الخاصة والعامة على جانب من الخلق ، حتى إن معاصريه شهدوا له جميعا بأنه كان قدوة في الخلق بمعنى الكلمة ، ولم يوجه إليه أحد طعنا ، لا في سلوكه ولا في آرائه .

واشتهر " الرندي " بفضيلة التواضع وهي فضيلة أساسية في التصوف ، واشتهر كذلك بالحياء ، حتى يروى أن أحد تلاميذه كان إذا طلب منه الدعاء احمر وجهه خجلا ، واستحيا كثيرا ، وكان " الرندي " كذلك متحقيقا مع الله كسائر الشاذلية ، بإسقاط الإرادة والتدبير ، بمعنى : ألا يكون الانسان متطلعا في قلق إلى استكناه المجهول ، وما ستؤول إليه الأمور في المستقبل ؛ لأن المستقبل من أمر الله ، مع الرضا التام بما يورده الله عليه في الحال ، والقيام بحق الوقت . وكان " الرندي " كذلك معرضا عن الخلق بمعنى : عدم الركون إليهم ، والتشاغل بما يتشاغلون به من توافه الأمور ، وعدم الدل إليهم ، والطمع فيهم .

ومن صفاته البارزة : أنه دائم الحضور مع الله ، ولا يحب أن يحضر في مكان ينسى فيه الحق . وكان متصفا بالرحمة والشفقة لجميع العباد ، ولاغربة في ذلك فهذه من صفات الكُمل من المرشدين ، والدعاة إلى طريق الله .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٧ : من بحث ابن عباد : أ . د الفتازاني .

ومجمل القول أن الرندى كان مثلاً عالياً في الكمال الخلقى ، ولعل هذا كله كان سبباً في احترام حكام عصره جميعاً له ؛ حتى ليروى أن ملوك زمانه كانوا يزدهمون عليه ويتلذذون بين يديه ، فلا يحفل بذلك (١)

توليه الخطابة والإمامة

وجدير بالذكر أن الرندى لم يكن في حياته صوفياً متجرداً منقطعاً إلى العبادة ، وإنما كان متولياً وظيفه دينية كبيرة في فاس ، وهى إمامة وخطابة مسجد القرويين . وكان الرندى إبان توليه الخطابة والإمامة موضع تقدير الجميع بما في ذلك السلطان ، وكان خطيباً فصيحاً ، يخرج كلامه منه ، فيؤثر في قلوب سامعيه ، وهذا راجع إلى أنه قد تهذبت أخلاقه ، وصار كلامه مستنيراً بنور الله ، فينفذ بذلك إلى قلوب سامعيه .

وقد ظل " ابن عباد " متولياً للإمامة والخطابة بمسجد القرويين خمس عشرة سنة ، حتى توفى بفاس .

وفاته وقبره

وقد أجمع المترجمون له على أن وفاته كانت في شهر رجب عام ٧٩٢ هـ — ١٣٨٩ م وحددها الشيخ " أبو زكريا السراج " بتحديد أكثر فقال : إنها كانت في يوم الجمعة الثالث من رجب بعد صلاة العصر (٢)

وقد قيل إن " ابن عباد " لما احتضر جعل رأسه في حجر شخص يدعى أبا القاسم ، وأخذ في قراءة آية الكرسي إلى قوله . الحى القيوم ، ثم يقول : يا الله ! يا حى ! يا قيوم ! فيلقنه من حضر : لا تأخذه سنة ولا نوم ، فيمتنع الرندى من

(١) نفع الطيب ج ٣ ص ١٧٨ : من بحث ابن عباد : أ. د. التفتازانى

(٢) نفع الطيب ج ٣ ص ١٧٧ ، سلوة الانفاس ، ج ٢ ص ١٤٠ : بحث عن الرندى للدكتور التفتازانى .

قراءتها ويقول : يا الله ! يا حي ! يا قيوم ! فلما قربت وفاته سمع منه هذا البيت ،
وكان آخر ما تكلم به :

ما عودنى أحبائي مقاطعة بل عودوني إذا قاطعتهم وصلوا^(١)
ولا يزال ضريح ” ابن عباد “ موجودا إلى اليوم بفاس يقصده الناس للتبرك
به ، وأصبح ” ابن عباد “ بالمغرب بمثابة الشافعي عند أهل مصر .^(٢)

تلاميذه

وقد خلف ابن عباد وراءه جملة من التلاميذ أخذوا عنه ، وتأثروا به ، وأشادوا
بذكره ، ومن هؤلاء الشيخ ” يحيى السراج “ : توفي بفاس عام ٨٠٥ هـ
(١٤٠١ م — ١٤٠٢ م)
ودفن مع أستاذه الرندي .
ومن تلاميذه أيضا : الشيخ ” ابن السكاك “ وكان يقول في ” ابن عباد “ شيخى
وبركتي ، وقد توفي عام ٨١٨ هـ — ١٤١٥ م ودفن أيضا مع أستاذه ” ابن عباد “
وبهذا يتبين كيف تخرج على يدي ” ابن عباد “ تلاميذ لهم مكاتبتهم في العلوم
الدينية وفي التصوف معا .

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٩ : عن بحث الرندي للدكتور التفتازاني .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٧ : بحث عن الرندي للدكتور التفتازاني .

مصنفات الرندي

خصائصها وأهميتها التصوفية

خلف لنا " الرندي " طائفة من المصنفات في التصوف وفي غير التصوف .
وتتميز مصنفاته عامة ببلاغة الأسلوب ، ودقة الألفاظ ، ووضوح المعنى ، ويغلب عليها طابع الذوق الصوفي ، ولا تخلو من عمق النظر العقلي .
وعبارتها تخلو من التزيد ، فالعبارات على قدر الألفاظ تماما .

وهناك خاصية واضحة ملازمة لجميع مصنفات الرندي ، وهي أنها متمشية مع الكتاب والسنة ، مستمدة منهما ، فهو كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف على كل فكرة تصوفية يريد أن يعبر عنها ؛ لأنه كان صوفيا يجمع بين الشريعة والحقيقة .

وترجع أهمية مصنفات " الرندي " إلى أنها قد تضمنت بيان مذهب الشاذلية ، وقربته إلى الأفهام ، فشرحه للحكم العطائية ، وسائر مصنفاته الأخرى — كل أولئك يعد مراجع أساسية لكل شاذلي يريد أن يعرف آداب الطريقة الشاذلية .

ثبت كلى لمصنفات الرندي

١ — " غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية "

وهو شرح ألفه " الرندي " على حكم الصوفي المصري " ابن عطاء الله السكندري الشاذلي .

وكان " الرندى " أول من قام بشرحها ، وعليه اعتمد غالبية الشراح المتأخرين فى شروحهم ومن هذه الشروح مثلاً شرح الشيخ " عبد الله حجازى الشرقاوى شيخ الاسلام بمصر والمتوفى سنة ١٢٢٧ هـ . ويعرف باسم " المنح القدسية على الحكم العطائية " . فهو يكاد يكون تلخيصاً لشرح الرندى .

٢ - نظم الحكم العطائية

يقال إن ابن عباد الرندى قد نظم الحكم لابن عطاء الله السكندرى أيضاً فقد ذكر الشيخ " أبو يحيى بن السكاك " مانصه : أما شيخى وبركتى أبو عبد الله بن عباد رضى الله عنه فإنه شرح الحكم ، وعقد درر منشورها فى نظم بديع ^(١) .

٣ - الرسائل الكبرى

ذكرها مترجموه كالمقرئ فى نفح الطيب ^(٢) ، والشيخ أحمد زروق " فى شرحه الحادى عشر على الحكم ^(٣) " وقد أهداها الرندى الى تلميذه الشيخ يحيى السراج . وهى وصايا يتوجه بها الى مريديه ، واعظا إياهم ، ومبيناً لهم آداب السلوك إلى الله .

٤ - الرسائل الصغرى

ذكرها المقرئ فى نفح الطيب ، والشيخ زروق ، فى شرحه الحادى عشر على الحكم . وهى فى جملتها وصايا يتوجه بها ابن عباد الى مريديه السالكين مجيباً لهم على بعض أسئلتهم فى التصوف ، وشارحاً لهم فيها بعض آدابه ومقاماته .

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٧ : بحث عن " الرندى " للدكتور التفتازانى .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٨ : بحث عن " الرندى " للدكتور التفتازانى .

(٣) سلوة الانفاس ج ٢ ص ١٣٥ - ١٣٦ : بحث عن " الرندى " للدكتور التفتازانى .

٥ — تحقيق العلامة في أحكام الإمامة

ذكر هذا الكتاب الشيخ ” أحمد زروق قائلا : رأيت بخطه (أى بخط الرندى) سفر ضخيم جمع فيه ما يحتاجه الإمام .

٦ — مجموعة خطب

جمعت لابن عباد مجموعة من خطبه حينما كان إماما وخطيبا بمسجد القرويين بفاس ، وصارت مرجعا هاما بعد وفاته (وهى خطب مناسبات) .

٧ — أدعية مرتبة على أسماء الله الحسنى

ذكرها الشيخ ” زروق “ فى شرحه الحادى عشر على الحكم .

٨ — أجوبة فى مسائل العلوم

ذكرها المقرئ فى نفح الطيب .

٩ — رسائل على قوت القلوب

ذكرها بروكلمان فى ثبته .

١٠ — فتح التحفة وإضاءة الشرفة

وهو كتاب صنفه ” الرندى “ فى علم الحديث .

نظرة فـهـ " الحكم العطائية "

أ - تصنيفها - عددها

يبدو أنها أول ما صنف " ابن عطاء الله السكندري " من مصنفاته ، فقد أشار إليها ، واقتبس منها فقرات في كثير من مصنفاته الأخرى ، مثل التنوير في إسقاط التدبير و " لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسى و شيخه الشاذلى أبى الحسن " و " تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس " و " عنوان التوفيق في آداب الطريق " . وقد ذكر حاجى خليفة " في كشف الظنون " أنه لما صنفها عرضها على شيخه " المرسى " فقال له : يا بنى ، لقد أتيت في هذه الكراسة بمقاصد " الإحياء " وزيادة ، يقصد " إحياء علوم الدين للإمام الغزالى .

فإذا صح هذا تكون الحكم قد ألفت قبل ٦٨٦ هـ وهو العام الذى توفى فيه " المرسى " وبذلك تكون " الحكم العطائية " من مؤلفات الشباب ؛ وقد طبعت طبعات عديدة مختلفة ، واهتم بها الكثير من العلماء والدارسين والصوفيين والشرح وبعض المستشرقين^(١)

أما عددها فهو :

مائتان وأربع وستون حكمة ، وهذا غير مكاتبات " ابن عطاء الله " لبعض إخوانه ، ومناجاته المشتملة على كثير من الحكم^(٢)

(١) ابن عطاء الله السكندري : للدكتور التفتازانى - ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) الحكم لابن عطاء الله : شرح الشيخ محمد بن مصطفى بن أبى العلا . حكم ابن عطاء الله : شرح الشيخ عبد المجيد الشونوبى الأزهرى .

ب — خصائصها الأدبية والفنية

تعد "الحكم العطائية" من عيون النثر الأدبي الصوفي العربي ، وهى عبارة عن فقرات قصيرة ، ذات ألفاظ قليلة ، تتضمن المعانى الكثيرة . وأغلب "الحكم العطائية" فى صورة خطاب موجه إلى المريد السالك لطريق الصوفية ، تنبئها إلى قواعد السلوك التى ينبغى مراعاتها .

وأسلوبها يعتمد على اختيار الألفاظ ، وانتقاء العبارات ، والتنسيق بينها ؛ حتى تؤثر فى نفس السامع أو القارئ .

ويعنى "ابن عطاء الله" فى حكمة بالإكثار من الأخيلة والتشبيهات التى تصور المعنى ، وتجسمه ، وتبرزه فى أجمل صورة ، كما فى قوله : "ربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى إشراق نهار البسط ، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا" وقوله فى عبارة موجزة : ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع . كما يعنى بالمحسنات اللفظية ذات الإيقاع ، والجرس الموسيقى ، مثل السجع والجناس . ويستخدم أحيانا المقابلة ، لا يوضح المعنى وإبرازه ، كما فى قوله : معصية أورثت ذلا وافتقارا — خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا^(١)

الترابط المنطقى بين الحكم

يقول الدكتور "الفتازانى" فى كتابه "ابن عطاء الله" ص ٨٠ : وليس بين فقراتها ارتباط منطقى ، كما لم يراع صاحبها ترتيبها بحسب موضوعاتها ، وإنما هى عبارات معبرة عن خطرات نفسه التى عرضت له فى أذواقه ، فدونها بغير تعمل تصنيف ، أو تكلف تأليف .

وهنا نتساءل : هل حقا ليس بين هذه الحكم المتعددة ارتباط منطقى ، أو ترتيب بين موضوعاتها ؟ كما يرى الدكتور الفتازانى ؟

(١) ابن عطاء الله : ص ٨٠ ، ٨١ .

اختلفت آراء الدارسين للحكم والشرح في ذلك :

فمنهم : من يرى وجود هذا الارتباط المنطقي ، والترتيب بين موضوعاتها : فنحن نجد مثلاً أن " ابن عجيبة " في شرحه " إيقاظ الهمم " — يربط دائماً بين هذه الحكم ، ويوثق الصلات بين كل حكمة وما قبلها وما بعدها . وكذلك الشيخ " زروق " في شرحه ، تحقيق الشيخ " عبد الحليم محمود " يتحدث عن ذلك صراحة في تقديمه لكتاب " الحكم العطائية " فيقول : عباراته رائقة جامعة ، وإشاراته فائقة نافعة . تثلج الصدر ، وتبهج الخاطر وتحرك السامع لها والناظر ، مع تداخل علومه وحكمه ، وتناسب حروفه وكلمه ؛ إذ كله داخل في كله ، وأوله مرتبط بالأخير من قوله ، بل كل مسألة منه تكملة لما قبلها ، وتوطئة لما بعدها ، وكل باب منه كالشرح للذي قبله والذي قبله أيضاً كأنه شرح له ، فكل حكمة أو كلمة إنما هي كالتكملة أو كالمقدمة . فأوسطه طرفاه ، وآخره مبتداه ، وأوله منتهاه ، يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله .

وقد عقب المحقق الشيخ " عبد الحليم محمود " على ذلك بقوله :

يريد الشيخ رحمه الله تعالى أن يقول : إن الحكم حكمة واحدة ، وذلك على خلاف ما يظن بعض الناس من أنها متناثرات ، لا رابط بينها ، ولا تجمعها وحدة ، ولا تربطها رابطة التكامل ، ولقد خفيت هذه الوحدة مثلاً على الدكتور " زكي مبارك " فقال : وليس بين الحكم العطائية رباط وثيق ، فهي مجموعة من الأقوال نظمت في أوقات مختلفة . . ولا شك أن أمر هذه الوحدة هو من الدقة بحيث ينبه على ذلك الشيخ فيقول : يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله^(١)

أما ابن عباد النفري في شرحه للحكم ، والشيخ الشرقاوي — فنجد أنهما يشيران — أحياناً قليلة ، وفي بعض الحكم — إلى وجود هذه الروابط ، لكنهما لم يلتزما بذلك دوماً ، كما فعل غيرهما من أمثال " ابن عجيبة " والشيخ " زروق " وأرى أنه من الانصاف أن نقول : هناك ارتباط منطقي وتسلسل ، ووحدة فكرية بين بعض الحكم التي يجمع بينها رباط واحد ، وموضوع واحد ، وتضمها فكرة

(١) مقدمة حكم " ابن عطاء الله " للشيخ " زروق " تحقيق الشيخ " عبد الحليم محمود "

واحدة ، ولكن لا ينبغي أن نتلمس هذا التسلسل المنطقي ، ونبحث عن هذه الوحدة بين جميع الحكم ، اللهم إلا بكثير من التحمل والتكلف الذى لا داعى ولا مبرر له .

ج — موضوعاتها

أودع ابن عطاء الله حكمه خلاصة آرائه فى التصوف ، فهى تستوعب مذهبه الصوفى بأسره ، وجميع ما جاء فى مصنفاته الأخرى — ليس إلا شرحا وتفصيلا لما احتوته .

ومن ” الحكم العطائية “ ما يتناول الأحكام الشرعية من ناحية آثارها فى قلوب المتعبدين السالكين . ومنها ما يعرض للمجاهدة النفسية ، وما يتعلق بها ، وما يترتب عليها من المقامات والأحوال التى هى ثمرتها .

ومنها ما يدور حول المعرفة ، وماهيتها وأدواتها ، ومناهجها ، وآداب المتحققين بها . ومنها ما يتضمن آراء ميتا فيزيقية فى تفسير الوجود ، وصلته بالله ، وصلة الإنسان بالله . ثم منها ما يشير إلى آداب السلوك العامة التى ينبغى أن يراعيها السالك فى مجاهداته ومقاماته وأحواله ومعرفته ، وبعبارة أخرى فى طريقه من أوله إلى آخره ^(١)

د — خصائصها التصوفية

وللحكم العطائية من حيث هى مصنف صوفى سمة واضحة هى ” الرمزية “ أى استخدام الألفاظ الاصطلاحية الصوفية ، فىكون للعبارة معنيان : أحدهما يستفاد من ظاهر الألفاظ ، والآخر يستفاد بالتحليل والتعمق ، وهو المعنى عندهم بالرمز . ويعنى ” الرمز “ عند الصوفية أيضا : دمج كثير المعنى فى قليل اللفظ . وللحكم العطائية سمة أخرى ، وهى أنها متمشية مع الكتاب والسنة .

(١) ص ٨٤ — ٨٥ ابن عطاء الله للدكتور التفازانى .

وليس فيها عبارات موهمة ، أو مستشعنة بحسب ظاهرها^(١) .
وإلى هذا يشير ” ابن عجيبة “ أحد شراحها بقوله : والمسلك الذى سلك فيه
مسلك توحيدى لا يسع أحد انكاره ، ولا الطعن فيه ، ولا يدع للمعتنى به صفة
حميدة إلا كساه إياها ، ولا صفة ذميمة إلا أزالها عنه باذن الله^(٢) .

هـ — قيمتها التصوفية

” للحكم العطائية “ قيمة تصوفية كبرى ، فهى تلخص مذهب ” ابن عطاء
الله “ الصوفى من ناحية وهى دستور للسالكين لطريقة ” الشاذلى “ من ناحية
أخرى .

وقد اشتهر ” ابن عطاء الله “ بين أبناء طريقته ، فلقبوه ” صاحب الحكم “
وقد ذكر ” ابن عجيبة “ فى بيان قيمتها التصوفية عن الشيخ العربى — أحد مشايخ
الشاذلية المتأخرين بالمغرب — أنه سمع فقيها يسمى البنائى يقول : كادت حكم ابن
عطاء الله أن تكون وحيا ، ولو كانت الصلاة تجوز بغير قرآن — لجازت بكلام
الحكم^(٣) .

هذا ، وقد وجدت ” الحكم العطائية “ طريقها إلى الفقهاء ، من علماء
الأزهر ، وقام بشرحها وتدريسها طائفة من علماء الأزهر المصريين القدامى مثل
الشيخ ” عبد الله الشرقاوى “ شيخ الإسلام (المتوفى ١٢٢٧ هـ) . والشيخ ” عبد
المجيد الشرنوبى “ من علماء الأزهر (توفى عام ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م) وظل الأمر
كذلك إلى عهد ليس ببعيد ، فقد ذكر المرحوم الدكتور ” زكى مبارك “ فى
” التصوف الإسلامى فى الآداب والأخلاق “ أن ” الحكم العطائية “ كانت مما

(١) ص ٧٧ ، ابن عطاء الله .

(٢) ابن عطاء الله ص ٨٨ .

(٣) هذا ضرب من المبالغة غير المحمودة ، فى وصف كلام البشر ، وهو لم يعد أن يكون فنا من فنون القول ،
يلخص بعض معانى الكتاب والسنة . (المراجع)

يدرسه كبار العلماء في الأزهر الشريف في عصرنا هذا ، ومن هؤلاء : الشيخ
” محمد بن خيث (مفتي الديار المصرية سابقا) الذي كان يدرسها للجمهور بعد صلاة
العصر من أيام رمضان في مسجد الحسين ، وذكر أنه حضر عليه طائفة من هذه
الدروس ، وأنه أنس بمعاني ” الحكم العطائية “ أشد الأنس ^(١)

وقد شرحت ” الحكم العطائية “ شروحا كثيرة في أزمنة مختلفة ، وفي أقطار
كثيرة وبلغات أجنبية أحيانا ، كالتركية والمالوية .
وقد شعر بأهمية ” الحكم “ وشرح ابن عباد النفزى الرندى عليها — المستشرق
الأسباني ” ميغل أسين بلاثيوس “ فترجم فقرات كثيرة منها مع شروح الرندى
عليها ^(٢) .

و — شروح الحكم

ذكر الدكتور التفتازانى في كتابه ” ابن عطاء الله السكندرى “ ثبنا لشروح
الحكم مرتبة ترتيبا زمنيا ، وقد بلغت أربعة وعشرون شرحا .
وقد تصدر شرح ” الرندى “ هذا الثبت ، فهو قمة هذه الشروح جميعها .
وهناك شرح آخر — أضيفه إلى هذه الشروح التي ذكرها الدكتور التفتازانى هو :
شرح ” الحكم “ المسمى ” من عطاء الله “ للشيخ محمد بن مصطفى بن أبى
العلا ” وهو يضم الحكم ، ومعها بعض المكاتبات والمناجاة ، يليها شرحها المسمى
” من عطاء الله “ .

شرح الرندى : ” غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية “

هو شرح محمد بن ابراهيم بن عباد النفزى الرندى (نسبة إلى رندة — مدينة
واقعة بجنوب الأندلس بين أشبيلية ومالقة) المتوفى سنة ٩٧٢ هـ — ١٣٨٩ م —

(١) التصوف الاسلامى : ج ١ ص ١٣٦ : ابن عطاء الله ص ٨٩

(٢) ابن عطاء الله ص ٩٠

من أهل الأندلس . ويصطنع ابن عباد في شرحه هذا أسلوبا رائقا جذابا ، وافيا بالغرض لا تزيد فيه ولا غموض ، ولا تعوزه دقة المناطقة^(١) .
وقد وضع ” الرندى “ شرحه على الحكم بناء على طلب اثنين من أصحابه ، وهما يحيى السراج ، وسليمان بن عمر .

وإلى هذا يشير الراندى نفسه بقوله : والذى حملنى على وضعة ، وتكلف تصنيفه وجمعه ، بعد تقدم إرادة الله تعالى التى لا تغلب ، وتقديره الذى ليس للعبد منه منجى ولا مهرب ، ثم الذى رأيناه من المطالب والمقاصد العظيمة ، ونهنا عليه فى صدر هذه المقدمة (يقصد مقدمته للشرح) إلحاح بعض أصحاب فى ذلك على ، وتردادهم بالمسألة إلى ، لكونهم على اعتقاد صحيح فى هذه الطريقة ، ومحبة خالصة لأهل الحقيقة ، فأسعفتهم بما طلبوه ، وحققتم لهم الأمل فيما رغبوه ، كما أشار الله تعالى وحكم ، وقضى به علينا وحتم ، نفعنا الله وإياهم بما يجرى منه على أيدينا ، ولا جعله حجة عليهم ولا علينا .

ويعرف شرح ” الرندى “ كذلك على ” الحكم “ باسم ” التنبيه “ .
وقد وصف الشيخ ” احمد زروق “ (المتوفى سنة ٨٩٩ هـ — ١٤٩٤ م) هذا الشرح بأنه : بستان الفن وخزانة أحكامه ، وجامع لبه ، ولا يكفى غيره عنه ، ويكفى هو عن غيره ، وأن كل من كتب على هذا الكتاب (يعنى الحكم) شيئا مما لقيته ، أو سمعنا به — فإنما هو دونه (أى دون شرح الرندى) فى القصد والتحقيق .

وقد وصف ” أسين بلاثيوس “ هذا الشرح بأنه يمكن أن يعتبر بلا مبالغة — مرجعا كاملا فى النظرية ، الزهدية التصوفية ، نافعا للمريدين المبتدئين ، ولأولئك السالكين لطريق الكمال . أو الذين فازوا بالوصول إلى نهايات الشهود وقد طبع هذا الشرح طبعات مختلفة^(٢)

(١) ص ٩١ ابن عطاء الله

(٢) ص ٩٢ ابن عطاء الله .

ز - نظم الحكم

وكما عُنِيَ كثيرون بشرح الحكم العطائية ، فقد عُنِيَ فريق آخر بنظمها شعرا ، ومن ذلك :

- ١ - نظم ابن عباد الرندى .
- ٢ - نظم لكمال الدين بن على شريف المتوفى ٩٠٦ هـ المسمى " فيض الكرم "
- ٣ - النظم المحتاج لعبد الكريم بن محمد بن عرى .
- ٤ - نظم ابن ابراهيم بن مالك .
- ٥ - نظم لعلى شهاب الدين بن محمد بن سعد الدين عنوانه " فيض الكرم فى شرح الحكم " .
- ٦ - نظم عبد الله بن على الملكى الملقب بالفارس ، عنوانه " فاتحة السالك لمولاه الحكم بشرح نظم كتاب الحكم "

ح - ترتيب الحكم

وعُنِيَ كذلك صوفى آخر بترتيب " الحكم العطائية " وهو علاء الدين على بن حسام الدين عبد الملك بن قاضى خان المعروف بالمتقى الهندى المتوفى عام ٩٧٧ هـ - فقد وضع ترتيبا للحكم سماه " النهج الأتم فى تبويب الحكم " (١)

تعقيب

وهكذا ظفرت " الحكم العطائية " بشروح كثيرة منذ القرن الثامن الهجرى إلى العصر الحاضر - ووجدت طريقها من مصر إلى أقطار إسلامية عدة كأسبانيا والمغرب والجزيرة العربية وتركيا والهند والملايو ؛ وبهذا أصبحت الحكم تراثا صوفيا حيا .

ولم يظفر مصنف من مصنفات " ابن عطاء الله " الأخرى - على الرغم ، علو منزلها بمثل ما ظفرت به " الحكم " من شروح (٢) .

(١) ابن عطاء الله ص ٩٨ .

(٢) ابن عطاء الله ص ٩٨ .

نصوص الحكم العطائية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحكم العطائية

قال ابن عطاء الله السكندري رضى الله تعالى عنه :

الحكمة الأولى

« من علامة الاعتماد على العمل — نقصان الرجاء عند وجود الزلل »

الحكمة الثانية

« إرادتك التجريد — مع إقامة الله إياك فى الأسباب — من الشهوة الخفية ،
وإرادتك الأسباب — مع إقامة الله إياك فى التجريد — انحطاط عن الهمة العلية »

الحكمة الثالثة

« سوابق الهمم — لا تخرق أسوار الأقدار »

الحكمة الرابعة

« أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك عنك — لا تقم به لنفسك »

الحكمة الخامسة

« اجتهدك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك — دليل على انطماس البصيرة منك »

الحكمة السادسة

« لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء — موجبا ليأسك ؛ فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك ، لا فيما تختار لنفسك ، وفى الوقت الذى يريد ، لا فى الوقت الذى تريد . »

الحكمة السابعة

« لا يشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود — وإن تعين زمنه — لئلا يكون ذلك قدحا فى بصيرتك ، وإخمادا لنور سريرتك »

الحكمة الثامنة

« إذا فتح لك وجهة من التعرف — فلا تبال معها إن قل عملك ، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك ، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك ، والأعمال أنت مهديها إليه ! وأين ما تهديه إليه — مما هو مورده عليك ؟

الحكمة التاسعة

« تنوعت أجناس الأعمال ، لتنوع واردات الأحوال »

الحكمة العاشرة

« الأعمال : صور قائمة ، وأرواحها : وجود سر الاخلاص فيها »

الحكمة الحادية عشرة

« ادفن وجودك فى أرض الخمول ، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه »

الحكمة الثانية عشرة

« ما نفع القلب شىء مثل غُزلة ، يدخل بها ميدان فكرة »

الحكمة الثالثة عشرة

كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟
أم كيف يرحل إلى الله ، وهو مكبل بشهواته ؟
أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟
أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار ، وهو لم يتب من هفواته ؟

الحكمة الرابعة عشرة

« الكون كله ظلمة ، وإنما أناره ظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ، ولم يشهده فيه ، أو عنده ، أو قبله ، أو بعده — فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شمس المعارف بسحب الآثار »

الحكمة الخامسة عشرة

« مما يدلك على وجود قهره — سبحانه — أن حجبك عنه بما ليس بموجود

معه »

الحكمة السادسة عشر

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذى أظهر كل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذى ظهر بكل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذى ظهر فى كل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذى ظهر لكل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أظهر من كل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الواحد الذى ليس معه شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أقرب اليك من كل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، ولولاه ما كان وجود كل شيء ؟
يا عجباً ! كيف يظهر الوجود فى العدم ! ؟
أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم ! ؟

الحكمة السابعة عشرة

« ما ترك من الجهل شيئاً — من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه »

الحكمة الثامنة عشرة

« إحالتك الأعمال على وجود الفراغ — من رعونات النفس » .

الحكمة التاسعة عشرة

« لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ؛ ليستعملك فيما سواها ، فلو أرادك —
لا تستعملك من غير إخراج »

الحكمة العشرون

« ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها — إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت له ظواهر المكونات — إلا ونادته حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر »

الحكمة الحادية والعشرون

« طلبك منه — اتهام له ، وطلبك له — غيبه منك عنه — وطلبك لغيره ، لقلة حيائك منه ، وطلبك من غيره — لوجود بعدك عنه »

الحكمة الثانية والعشرون

« ما من نفس تبديه — إلا وله قدر فيك يمضيه »

الحكمة الثالثة والعشرون

« لا تتربح فراغ الأغيار ، فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له ، فيما هو مقيمك فيه »

الحكمة الرابعة والعشرون

« لا تستغرب وقوع الأكدار — مادمت فى هذه الدار — فانها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها ، وواجب نعتها »

الحكمة الخامسة والعشرون

« ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك »

الحكمة السادسة والعشرون

« من علامات الشجع فى النهايات — الرجوع إلى الله فى البدايات »

الحكمة السابعة والعشرون

« من أشرقت بدايته — أشرقت نهايته »

الحكمة الثامنة والعشرون

« ما استودع فى غيب السرائر — ظهر فى شهادة الظواهر »

الحكمة التاسعة والعشرون

« شتان بين من يستدل به ، أو يستدل عليه : المستدل به — عرف الحق لأهله ؛ فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه — من عدم الوصول إليه ، وإلا فمتى غاب ؛ حتى يُستدل عليه ، ومتى بعد ؛ حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه ؟

الحكمة الثلاثون

« لينفق ذو سعة من سعته : الواصلون إليه ، ومن قَدِرَ عليه رزقه : السائرون إليه »

الحكمة الحادية والثلاثون

« اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه ، والواصلون لهم أنوار المواجهة . فالأولون للأنوار ، وهؤلاء الأنوار لهم ؛ لأنهم لله ، لا لشيء دونه : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

الحكمة الثانية والثلاثون

« تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب — خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب »

الحكمة الثالثة والثلاثون

« الحق ليس بمحجوب ، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، إذ لو حجبته شيء — لستره ما حجبته ، ولو كان له ساتر — لكان لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشيء — فهو له قاهر « وهو القاهر فوق عباده » .

الحكمة الرابعة والثلاثون

« اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك ؛ لتكون — لنداء الحق — مجيبا ، ومن حضرته قريبا » .

الحكمة الخامسة والثلاثون

« أصل كل معصية وغفلة وشهوة — الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة ، عدم الرضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا ، لا يرضى عن نفسه — خير لك من أن تصحب عالما ، يرضى عن نفسه ، فأى علم لعالم ، يرضى عن نفسه ؟ وأى جهل لجاهل ، لا يرضى عن نفسه ؟

الحكمة السادسة والثلاثون

« شعاع البصيرة — يُشهدك قربك منك ، وعين البصيرة — تشهدك عدَمك ، لوجوده ، وحق البصيرة — يُشهدك وجوده ، لا عدَمك ، ولا وجودك »

الحكمة السابعة والثلاثون

« كان الله ولا شيء معه ، وهو — الآن — على ما عليه كان »

الحكمة الثامنة والثلاثون

« لا تتعد نية همتك إلى غيره ، فالكريم — لا تتخطاه الآمال »

الحكمة التاسعة والثلاثون

« لا ترفعنَّ إلى غيره حاجة ، هو موردها عليك ، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا ؟ ! من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه — فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا ؟ ! »

الحكمة الأربعون

« إن لم تحسن ظنك به ، لأجل حسن وصفه — فحسن ظنك به ، لأجل معاملته معك ، فهل عودك إلا حسنا ؟ ! وهل أسدى إليك إلا مننا ؟ ! »

الحكمة الحادية والأربعون

« العجب كل العجب ممن يهرب ، ممن لا انفكاك له عنه ، ويطلب مالا بقاء معه ، (فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) »

الحكمة الثانية والأربعون

« لا ترحل من كون إلى كون ؛ فتكون كحمار الرحى ، يسير ، والمكان الذى ارتحل إليه — هو الذى ارتحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون (وأن الى ربك المنتهى) ، وانظر الى قوله ﷺ : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله — فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها — فهجرته إلى ما هاجر إليه ، فافهم قوله عليه الصلاة والسلام ، وتأمل هذا الأمر ، إن كنت ذا فهم والسلام . »

الحكمة الثالثة والأربعون

« لا تصحب من لا يُنهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله »

الحكمة الرابعة والأربعون

« ربما كنت مسيئاً ، فأراك الإحسان منك صحبتك من هو أسوأ حالا منك »

الحكمة الخامسة والأربعون

« ما قل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب »

الحكمة السادسة والأربعون

« حسن الأعمال — نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال — من التحقق في مقامات الإنزال »

الحكمة السابعة والأربعون

« لا تترك الذكر ، لعدم حضورك مع الله فيه ، لأن غفلتك عن وجود ذكره — أشد من غفلتك في وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة — الى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة الى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور — الى ذكر مع وجود غيبة ، عما سوى المذكور ، (وما ذلك على الله بعزير) .

الحكمة الثامنة والأربعون

« من علامات موت القلب — عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات ، وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات »

الحكمة التاسعة والأربعون

« لا يعظم الذنب عندك — عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ؛ فإن من عرف ربه — استصغر في جنب كرمه ذنبه »

الحكمة الخمسون

« لا صغيرة إذا قابلك عدله ، ولا كبيرة إذا واجهك فضله »

الحكمة الحادية والخمسون

« لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ، ويحتقر عندك وجوده »

الحكمة الثانية والخمسون

« إنما أورد عليك الوارد ؛ لتكون به عليه واردا »

الحكمة الثالثة والخمسون

« أورد عليك الوارد ؛ ليستعملك من يد الأغيار ، ويحركك من رق الآثار »

الحكمة الرابعة والخمسون

« أورد عليك الوارد ؛ ليخرجك من سجن وجودك — إلى فضاء شهودك »

الحكمة الخامسة والخمسون

« الأنوار مطايا القلوب والأسرار »

الحكمة السادسة والخمسون

« النور جند القلب ، كما أن الظلمة جند النفس ، فإذا أراد الله أن ينصر عبده —
أمدّه بجنود الأنوار ، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار »

الحكمة السابعة والخمسون

« النور له الكشف ، والبصيرة لها الحكم ، والقلب له الإقبال والإدبار »

الحكمة الثامنة والخمسون

« لا تفرحك الطاعة ؛ لأنها برزت منك ، وافرح بها ، لأنها برزت من الله إليك :
(قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)

الحكمة التاسعة والخمسون

« قطع السائرين له ، والواصلين إليه ، عن رؤية أعمالهم ، وشهود أحوالهم .
أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها ، وأما الواصلون — فلأنه
غيبهم بشهوده عنها »

الحكمة الستون

« ما بسقت أغصان ذل — إلا على بذر طمع »

الحكمة الحادية والستون

« ما قادك شيء مثل الوهم »

الحكمة الثانية والستون

« أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت له طامع »

الحكمة الثالثة والستون

« من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان — قيد إليه بسلاسل الامتحان »

الحكمة الرابعة والستون

« من لم يشكر النعم — فقد تعرض لزوالها — ومن شكرها — فقد قيدها بعقالها .

الحكمة الخامسة والستون

« خف من وجود إحسانه إليك ، ودوام إساءتك معه — أن يكون ذلك استدراجا لك : (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) .

الحكمة السادسة والستون

« من جهل المرید — أن يسيء الأدب ؛ فتؤخر العقوبة عنه ، فيقول : لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد ، وأوجب الإبعاد ، فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر . ولو لم يكن إلا منع المزيد ، وقد يقام مقام البعد — وهو لا يدري . ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد .

الحكمة السابعة والستون

« إذا رأيت عبداً أقامه الله تعالى بوجود الأوراد ، وأدامه عليها مع طول الإمداد — فلا تستحقرون مامنحه مولاه ؛ لأنك لم تر عليه شيئا العارفين ، ولا بهجة المحبين ، فلولا وارد ما كان ورد »

الحكمة الثامنة والستون

« قوم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته : (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) » .

الحكمة التاسعة والستون

« قلما تكون الواردات الإلهية — إلا بغتة ، لتلا يدعيها العباد بوجود الاستعداد »

الحكمة السبعون

« من رأيت مجيباً عن كل ما سئل ، ومعبراً عن كل ما شهد ، وذاكراً كل ما علم — فاستدل بذلك على وجود جهله »

الحكمة الحادية والسبعون

« إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين ؛ لأن هذه الدار — لا تسع ما يريد أن يعطيهم ؛ ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها .

الحكمة الثانية والسبعون

« من وجد ثمرة عمله عاجلا — فهو دليل على وجود القبول آجلا »

الحكمة الثالثة والسبعون

« إذا أردت أن تعرف قدرك عنده — فانظر فيما يقيمك »

الحكمة الرابعة والسبعون

« متى رزقك الطاعة ، والغنى به عنها — فاعلم أنه : قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة »

الحكمة الخامسة والسبعون

« خير ما تطلبه منه — ما هو طالبه منك »

الحكمة السادسة والسبعون

« الحزن على فقدان الطاعة — مع عدم النهوض إليها — من علامات الاغترار »

الحكمة السابعة والسبعون

« ما العارف من إذا أشار — وجد الحق أقرب إليه من إشارته ، بل العارف من لا إشارة له ، لفناؤه في وجوده ، وانطوائه في شهوده »

الحكمة الثامنة والسبعون

« الرجاء ما قارنه عمل ، وإلا فهو أمنية »

الحكمة التاسعة والسبعون

« مطلب العارفين من الله — الصدق فى العبودية — والقيام بحقوق الربوبية »

الحكمة الثمانون

« بسطك ؛ كيلا يقيقك مع القبض ، وقبضك ؛ كيلا يتركك مع البسط ،
واخرجك عنهما ؛ كيلا تكون لشيء دونه »

الحكمة الحادية والثمانون

« العارفون إذا بسطوا — أخوف منهم إذا قبضوا ، ولا يقف على حدود الأدب
فى البسط إلا قليل »

الحكمة الثانية والثمانون

« البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح ، والقبض لاحظ للنفس فيه »

الحكمة الثالثة والثمانون

« ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك »

الحكمة الرابعة والثمانون

« متى فتح باب الفهم فى المنع — عاد المنع عين العطاء »

الحكمة الخامسة والثمانون

« الأكوان ظاهرها غرة ، وباطنها عبرة ، فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها ، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها »

الحكمة السادسة والثمانون

« إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى — فلا تستعزن بعز يفنى »

الحكمة السابعة والثمانون

« الطي الحقيقى أن تطوى مسافة الدنيا عنك ؛ حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك »

الحكمة الثامنة والثمانون

« العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان »

الحكمة التاسعة والثمانون

« جل ربنا أن يعامله العبد نقدا ، فيجازيه نسيئة »

الحكمة التسعون

« كفى من جزائه إياك على الطاعة — أن رضيك لها أهلا »

الحكمة الحادية والتسعون

« كفى العاملين جزاء — ما هو فاتحه على قلوبهم فى طاعته ، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته »

الحكمة الثانية والتسعون

« من عبده لشيء يرجوه منه — أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه — فما قام بحق أوصافه »

الحكمة الثالثة والتسعون

« متى أعطاك — أشهدك بره ، ومتى منعك — أشهدك قهره ، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك »

الحكمة الرابعة والتسعون

« إنما يؤلمك المنع ؛ لعدم فهمك عن الله فيه »

الحكمة الخامسة والتسعون

ربما فتح لك باب الطاعة ، وما فتح لك باب القبول ، وربما قضى عليك بالذنب — فكان سببا في الوصول »

الحكمة السادسة والتسعون

« معصية أورثت ذلا وافتقارا — خير من طاعة ، أورثت عزا واستكبارا »

الحكمة السابعة والتسعون

« نعمتان ما خرج موجود عنهما ، ولا بد لكل مكون منهما ، نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد »

الحكمة الثامنة والتسعون

« أنعم عليك أولا بالإيجاد ، وثانيا بتوالي الإمداد »

الحكمة التاسعة والتسعون

« فافتك لك ذاتية ، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفى عليك منها ، والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض »

الحكمة المائة

« خير أوقاتك — وقت تشهد فيه وجود فافتك ، وترد فيه إلى وجود ذلك »

الحكمة الحادية بعد المائة

« متى أوحشك من خلقه — فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به »

الحكمة الثانية بعد المائة

« متى أطلق لسانك بالطلب — فاعلم أنه يريد أن يعطيك »

الحكمة الثالثة بعد المائة

« العارف لا يزول اضطرابه ، ولا يكون مع غير الله قراره »

الحكمة الرابعة بعد المائة

« أنار الظواهر بأنوار آثاره ، وأنار السرائر بأنوار أوصافه ؛ لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ، ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر ؛ ولذلك قيل :
إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب »

الحكمة الخامسة بعد المائة

« ليخفف ألم البلاء عنك — علمك بأنه — سبحانه — هو المبلى لك ، فالذى واجهتك منه الأقدار — هو الذى عودك حسن الاختيار »

الحكمة السادسة بعد المائة

« من ظن انفكاك لطفه عن قدره — فذلك لقصور نظره »

الحكمة السابعة بعد المائة

« لا يخاف عليك أن تلبس الطرق عليك ، وانما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك . »

الحكمة الثامنة بعد المائة

« سبحانه من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية »

الحكمة التاسعة بعد المائة

« لا تطالب ربك بتأخر مطلبك ، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك »

الحكمة العاشرة بعد المائة

« متى جعلك في الظاهر ممثلاً لأمره ، ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره — فقد أعظم المنة عليك »

الحكمة الحادية عشرة بعد المائة

« ليس كل من ثبت تخصيصه — كمل تخليصه »

الحكمة الثانية عشرة بعد المائة

« لا يستحق الورد إلا جهول : الوارد يوجد في الدار الآخرة ، والورد ينطوى

بانطواء هذه الدار ، وأولى ما يعتنى به — مالا يخلف وجوده — الورد هو طالبه منك ، والوارد أنت تطلبه منه ، وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه ؟

الحكمة الثالثة عشرة بعد المائة

« ورود الإمداد بحسب الاستعداد ، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار »

الحكمة الرابعة عشرة بعد المائة

« الغافل إذا أصبح ينظر : ماذا يفعل ؟ والعاقل ينظر : ماذا يفعل الله به ؟ »

الحكمة الخامسة عشرة بعد المائة

« إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شيء ، لغيتهم عن الله فى كل شيء ، فلو شهدوه فى كل شيء — لم يستوحشوا من شيء »

الحكمة السادسة عشرة بعد المائة

« أمرك فى هذه الدار بالنظر فى مكوناته ، وسيكشف لك فى تلك الدار عن كمال ذاته »

الحكمة السابعة عشرة بعد المائة

« علم منك : أنك لاتصبر عنه — فاشهدك مابرز منه »

الحكمة الثامنة عشرة بعد المائة

« لما علم الحق منك وجود ملل — لون لك الطاعات ، وعلم ما فيك من وجود الشره — فحجرها عليك فى بعض الأوقات ؛ ليكون همك إقامة الصلاة ، لا وجود الصلاة ، فما كل مصلى مقيم »

الحكمة التاسعة عشرة بعهد المائة

« الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب ، واستفتاح لباب الغيوب »

الحكمة العشرون بعهد المائة

« الصلاة محل المناجاة ، ومعدن المصافاة : تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار . علم وجود الضعف منك — فقلل أعدادها ، وعلم احتياجك إلى فضله — فكثر أمدادها »

الحكمة الحادية والعشرون بعهد المائة

« متى طلبت عوضا على عمل — طولبت بوجود الصدق فيه ، ويكفى المريد — وجدان السلامة . »

الحكمة الثانية والعشرون بعهد المائة

« لا تطلب عوضا على عمل لست له فاعلا . يكفي من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلا »

الحكمة الثالثة والعشرون بعهد المائة

« إذا أراد أن يظهر فضله عليك — خلق ونسب إليك »

الحكمة الرابعة والعشرون بعهد المائة

« لا نهاية لمذاذك إن أرجعك إليك ، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك »

الحكمة الخامسة والعشرون بعهد المائة

« كن بأوصاف ربوبيته — متعلقا ، وبأوصاف عبوديتك — متحققا »

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائة

« منعك أن تدعى ما ليس لك — مما للمخلوقين ، أفيصح لك أن تدعى وصفة ، وهو رب العالمين ؟! »

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائة

« كيف تخرق لك العوائد ، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد »

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائة

« ما الشأن وجود الطلب ، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب »

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائة

« ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الدل والافتقار »

الحكمة الثلاثون بعد المائة

« لو أنك لا تصل إلا بعد فناء مساويك ، ومحو دعاويك — لم تصل إليه أبدا ، ولكن إذا أردت أن يوصلك إليه — غطى وصفك بوصفه ، ونعمتك بنعمته ، فوصلك إليه : بما منه إليك ، لا بما منك إليه .

الحكمة الحادية والثلاثون بعد المائة

« لولا جميل ستره — لم يكن عمل أهلا للقبول »

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائة

« أنت إلى حلمه — إذا أطعته — أحوج منك إلى حلمه — إذا عصيته »

الحكمة الثالثة والثلاثون بعهد المائة

« الستر على قسمين : ستر عن المعصية ، وستر فيها : فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر فيها ، خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق ، والخاصة يطلبون من الله الستر عنها ، خشية سقوطهم من نظر الملك الحق »

الحكمة الرابعة والثلاثون بعهد المائة

« من أكرمك — فإنما أكرم فيك جميل ستره — فالحمد لمن سترك ، ليس الحمد لمن أكرمك وشرك »

الحكمة الخامسة والثلاثون بعهد المائة

« ما صحبتك إلا من صحبتك ، وهو بعينك عليم ، وليس ذلك إلا مولاك الكريم ، خير من تصحب من يطلبك لا لشيء يعود منك إليه »

الحكمة السادسة والثلاثون بعهد المائة

« لو أشرق لك نور اليقين — لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ، ولرأيت محاسن الدنيا — قد ظهرت كسفة الفناء عليها »

الحكمة السابعة والثلاثون بعهد المائة

« ما حجبك عن الله وجود موجود معه ، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه »

الحكمة الثامنة والثلاثون بعهد المائة

« لولا ظهوره في المكونات — ما وقع عليها وجود إِبصار ، لو ظهرت صفاته — اضمحلت مكوناته »

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائة

« أظهر كل شيء ؛ لأنه الباطن ، طوى وجود كل شيء ؛ لأنه الظاهر »

الحكمة الأربعون بعد المائة

« أباح لك أن تنظر ما فى المكونات ، وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات : (قل انظروا ماذا فى السماوات) ، فتح لك باب الأفهام ، ولم يقل : انظروا السماوات ، لئلا يدللك على وجود الأجرام »

الحكمة الحادية والأربعون بعد المائة

« الأكوان ثابتة بإثباته ، وممحوة بأحدية ذاته »

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائة

« الناس يمدحونك ؛ لما يظنونهم فيك ، فكن أنت ذاما لنفسك ؛ لما تعلمه منها »

الحكمة الثالثة والأربعون بعد المائة

« المؤمن إذا مدح — استحيا من الله أن يشئ عليه بوصف لا يشهده من نفسه »

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المائة

« أجهل الناس من ترك يقين ما عنده ؛ لظن ما عند الناس »

الحكمة الخامسة والأربعون بعد المائة

« إذا أطلق الشاء عليك ، ولست بأهل — فأئن عليه بما هو أهله »

الحكمة السادسة والأربعون بعد المائة

« الزهاد إذا مدحوا — انقبضوا ، لشهودهم الشئ من الحق ، والعارفون إذا مدحوا — انبسطوا ، لشهودهم ذلك من الحق »

الحكمة السابعة والأربعون بعد المائة

« متى كنت إذا أعطيت — بسطك العطاء ، وإذا منعت — قبضك المنع ، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك ، وعدم صدقك في عبوديتك ».

الحكمة الثامنة والأربعون بعد المائة

« إذا وقع منك ذنب — فلا يكن سببا ليأسك ، من حصول الاستقامة مع ربك ؛ فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك »

الحكمة التاسعة والأربعون بعد المائة

« إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء — فاشهد ما منه إليك ، وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف — فاشهد مامتك إليه »

الحكمة الخمسون بعد المائة

« ربما أفادك في ليل القبض — ما لم تستفده في إشراق نهار البسط (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) »

الحكمة الحادية والخمسون بعد المائة

« مطالع الأنوار — القلوب والأسرار »

الحكمة الثانية والخمسون بعد المائة

« نور مستودع في القلوب — مدده من النور الوارد من خزائن الغيوب »

الحكمة الثالثة والخمسون بعد المائة

« نور يكشف لك به عن آثاره ، ونور يكشف لك به عن أوصافه »

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المائة

« ربما وقفت القلوب مع الأنوار — كما حجت النفوس بكثائف الأغيار »

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المائة

« ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر ، إجلالا لها أن تبدل بوجود الإظهار ،
وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار »

الحكمة السادسة والخمسون بعد المائة

« سبحانه من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل
إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه »

الحكمة السابعة والخمسون بعد المائة

« ربما أطلعك على غيب ملكوته ، وحجب عنك الاستشراق على أسرار العباد »

الحكمة الثامنة والخمسون بعد المائة

« من اطلع على أسرار العباد ، ولم يتخلق بالرحمة الإلهية — كان اطلاعة فتنة
عليه ، وسببا لجر الوبال إليه »

الحكمة التاسعة والخمسون بعد المائة

« حظ النفس في المعصية — ظاهر جلى ، وحظها في الطاعة — باطن خفى ،
ومداواة ما يخفى صعب علاجه »

الحكمة الستون بعد المائة

ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك»

الحكمة الحادية والستون بعد المائة

« استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك — دليل على عدم صدقك في
عبوديتك » .

الحكمة الثانية والستون بعد المائة

« غيَّبَ نظر الخلق إليك بنظر الله إليك ، وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله
عليك »

الحكمة الثالثة والستون بعد المائة

« من عرف الحق — شهد في كل شيء ، ومن فنى به ، غاب عن كل شيء ،
ومن أحبه — لم يؤثر عليه شيئاً »

الحكمة الرابعة والستون بعد المائة

« إنما حجب الحق عنك — شدة قربه منك »

الحكمة الخامسة والستون بعد المائة

« إنما احتجب لشدة ظهوره ، وخفى عن الأبصار لعظم نوره »

الحكمة السادسة والستون بعد المائة

« لا يكن طلبك تسببا إلى العطاء منه ، فيقل فهمك عنه ، وليكن طلبك لظهار العبودية وقيامها بحق الربوبية »

الحكمة السابعة والستون بعد المائة

« كيف يكون طلبك اللاحق — سببا في عطائه السابق ؟! » .

الحكمة الثامنة والستون بعد المائة

« جل حكم الأزل — أن ينضاف إلى العلل »

الحكمة التاسعة والستون بعد المائة

« عنايته فيك لا لشيء منك ، وأين كنت حين واجهتك عنايته ، وقابلتك رعايته ؟! لم يكن في أزاله — إخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال ، وعظيم النوال »

الحكمة السبعون بعد المائة

« علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية ، فقال : (يختص برحمته من يشاء) وعلم أنه لو خلاهم وذلك — لتركوا العمل ؛ اعتمادا على الأزل ، فقال : (إن رحمة الله قريب من المحسنين) »

الحكمة الحادية والسبعون بعد المائة

« إلى المشيئة — يستند كل شيء — ولا تستند هي إلى شيء »

الحكمة الثانية والسبعون بعد المائة

« ربما دلهم الأدب على ترك الطلب ؛ اعتمادا على قسمته ؛ واشتغالا بذكره عن مسأله » .

الحكمة الثالثة والسبعون بعد المائة

« إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال ، وإنما ينه من يمكن منه الإهمال »

الحكمة الرابعة والسبعون بعد المائة

« ورود الفاقات - أعياد المريدين »

الحكمة الخامسة والسبعون بعد المائة

« ربما وجدت من المزيد من الفاقات - مالا تجده في الصوم والصلاة »

الحكمة السادسة والسبعون بعد المائة

« الفاقات بسط المواهب »

الحكمة السابعة والسبعون بعد المائة

« إن أردت ورود المواهب عليك - صحح الفقر والفاقة لديك : (إنما الصدقات للفقراء) »

الحكمة الثامنة والسبعون بعد المائة

« تحقق بأوصافك - يمدك بأوصافه ، تحقق بذلك - يمدك بعزه ، تحقق بعجزك - يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك - يمدك بحوله وقوته »

الحكمة التاسعة والسبعون بعد المائة

« ربما رزق الكرامة — من لم تكمل له الاستقامة »

الحكمة الثمانون بعد المائة

« من علامات إقامة الحق لك في الشيء — إقامته إياك فيه ، مع حصول النتائج »

الحكمة الحادية والثمانون بعد المائة

« من عبر من بساط إحسانه — أصمته الإساءة ، ومن عبر من بساط إحسان الله إليه — لم يصمت إذا أساء »

الحكمة الثانية والثمانون بعد المائة

« تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ؛ فحيث صار التنوير — وصل التعبير »

الحكمة الثالثة والثمانون بعد المائة

« كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز »

الحكمة الرابعة والثمانون بعد المائة

« من أذن له في التعبير — فهمت في مسمع الخلق — عبارته ، وجلت إليهم اشارته »

الحكمة الخامسة والثمانون بعد المائة

« ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار ، إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار »

الحكمة السادسة والثمانون بعد المائة

« عباراتهم إما لفيضان وجد ، أو لقصد هداية مريد : فالأول : حال السالكين ،
والثاني حال أرباب المكنة والمحققين »

الحكمة السابعة والثمانون بعد المائة

« العبارات قوت لعائلة المستمعين ، وليس لك إلا ما أنت له آكل »

الحكمة الثامنة والثمانون بعد المائة

« ربما عبر عن المقام من استشرف عليه ، وربما عبر عنه من وصل إليه ،
وذلك — ملتبس إلا على صاحب بصيرة »

الحكمة التاسعة والثمانون بعد المائة

« لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته ؛ فإن ذلك يقل عملها في قلبه ، ويمنعه
وجود الصدق مع ربه » .

الحكمة التسعون بعد المائة

« لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق — إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك ،
فإذا كنت كذلك — فخذ ما وافقك العلم »

الحكمة الحادية والتسعون بعد المائة

« ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه ؛ لاكتفائه بمشيئته ، فكيف
لا يستحي أن يرفعها إلى خليقته ؟! »

الحكمة الثانية والتسعون بعد المائة

« إذا التبس عليك أمران — فانظر أثقلهما على النفس ، فإنه لا يتقل عليها إلا ما كان حقاً »

الحكمة الثالثة والتسعون بعد المائة

« من علامات اتباع الهوى — المسارعة إلى نوافل الخيرات ، والتكاسل عن القيام بالواجبات »

الحكمة الرابعة والتسعون بعد المائة

« قيد الطاعات بأعيان الأوقات ، كي لا يمنعك عنها — وجود التسويف ، ووسع عليك الوقت كي تبقى لك حصة الاختيار »

الحكمة الخامسة والتسعون بعد المائة

« علم قلة نهوض العباد إلى معاملته ، فأوجب عليهم وجود طاعته ، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب ، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل »

الحكمة السادسة والتسعون بعد المائة

« أوجب عليك وجود خدمته ، وما أوجب عليك إلا دخول جنته »

الحكمة السابعة والتسعون بعد المائة

« من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته — فقد استعجز القدرة الإلهية : (وكان الله على كل شيء مقتدرًا) » .

الحكمة الثامنة والتسعون بعد المائة

« ربما وردت الظلم عليك ؛ ليعرفك قدر ما من به عليك »

الحكمة التاسعة والتسعون بعد المائة

« من لم يعرف قدر النعم بوجدانها - عرفها بوجود فقدانها »

الحكمة المائتان

« لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ، فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك »

الحكمة الحادية بعد المائتين

« تمكن حلاوة الهوى من القلب - هو الداء العضال »

الحكمة الثانية بعد المائتين

« لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج ، أو شوق مقلق »

الحكمة الثالثة بعد المائتين

« كما لا يحب العمل المشترك - كذلك لا يحب القلب المشترك : العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يقبل عليه »

الحكمة الرابعة بعد المائتين

« أنوار أذن لها فى الوصول ، وأنوار أذن لها فى الدخول »

الحكمة الخامسة بعد المائتين

« ربما وردت عليك الأنوار — فوجدت قلبك محشواً بصور الآثار — فارتحلت من حيث نزلت »

الحكمة السادسة بعد المائتين

« فرغ قلبك من الأغيار — يملأه بالمعارف والأسرار »

الحكمة السابعة بعد المائتين

« لا تستبطيء منه النوال — ولكن استبطيء من نفسك وجود الإقبال »

الحكمة الثامنة بعد المائتين

« حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها ، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها : إذ ما من وقت يرد إلا والله عليك فيه حق جديد ، وأمر أكيد ، فكيف تقضى فيه حق غيره ، وأنت لم تقض حق الله فيه ؟ »

الحكمة التاسعة بعد المائتين

« مافات من عمرك — لا عوض له ، وما حصل لك منه ، لا قيمة له »

الحكمة العاشرة بعد المائتين

« ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً »

الحكمة الحادية عشرة بعد المائتين

« لا تنفعه طاعتك ، ولا تضره معصيتك ، وإنما أملك بهذه ، ونهاك عن هذه ؛ لما يعود عليك »

الحكمة الثانية عشرة بعد المائتين

« لا يزيد في عزه — إقبال من أقبل عليه ، ولا ينقص من عزه — إدبار من أدبر عنه »

الحكمة الثالثة عشرة بعد المائتين

« وصولك إلى الله — وصولك إلى العلم به — وإلا فجل ربنا أن يتصل به شيء ، أو يتصل هو بشيء »

الحكمة الرابعة عشرة بعد المائتين

« قربك منه — أن تكون مشاهدا لقربه ، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه ؟ »

الحكمة الخامسة عشرة بعد المائتين

« الحقائق ترد في حال التجلي — مجملة ، وبعد الوعي — يكون البيان : (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) .

الحكمة السادسة عشرة بعد المائتين

« متى وردت الواردات الإلهية عليك — هدمت العوائد عليك : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) »

الحكمة السابعة عشرة بعد المائتين

« الوارد يأتي من حضرة قهار ؛ لأجل ذلك — لا يصادمه شيء ، إلا دمهغه (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) » .

الحكمة الثامنة عشرة بعد المائتين

« كيف يحتجب الحق بشيء ، والذي يحتجب به — هو فيه ظاهر ، وموجود حاضر ؟! »

الحكمة التاسعة عشرة بعد المائتين

« لا تيأس من قبول عمل — لم تجد فيه وجود الحضور ، فربما قبل من العمل — مالم تدرك ثمرته عاجلا »

الحكمة العشرون بعد المائتين

« لا تركن واردا لا تعلم ثمرته ، فليس المراد من السحابة — الإمطار ، وإنما المراد منها — وجود الإثمار »

الحكمة الحادية والعشرون بعد المائتين

« لا تطلب بقاء الواردات — بعد أن بسطت أنوارها ، وأودعت أسرارها ، فلك — فى الله — غنى عن كل شيء ، وليس يغنيك عنه شيء »

الحكمة الثانية والعشرون بعد المائتين

« تطلعك إلى بقاء غيره — دليل على عدم وجدانك له ، واستيحاشك لفقدان ماسواه — دليل على عدم وصلتك به »

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المائتين

« النعيم وإن تنوع مظاهره — إنما هو لشهوده واقترابه ، والعذاب وإن تنوع مظاهره — إنما هو لوجود حجاب ، فسبب العذاب — وجود الحجاب ، وتمام النعيم — بالنظر إلى وجهه الكريم »

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المائتين

« ما تجده القلوب من الهموم والأحزان — فلأجل ما منعه من وجود العيان »

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المائتين

« من تمام النعمة عليك — أن يرزقك ما يكفيك ، ويمنعك ما يطغيك »

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائتين

« ليقل ما تفرح به — يقل ما تحزن عليه »

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائتين

« إن أردت ألا تعزل — فلا تتول ولاية لا تدوم لك »

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائتين

« إن رغبتك البدايات — زهدتك النهايات : إن دعاك إليها ظاهر — نهاك عنها باطن »

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائتين

« انما جعلها محلا للأغيار ، ومعدنا للأكدار ؛ تزهدا لك فيها »

الحكمة الثلاثون بعد المائتين

« علم أنك لا تقبل النصح المجرد ، فذوقك من ذواقها — ما سهل عليك وجود فراقها »

الحكمة الحادية والثلاثون بعد المائتين

« العلم النافع — هو الذى ينبسط فى الصدر شعاعه ، وينكشف به عن القلب قناعه »

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائتين

« خير العلم — ما كانت الخشية معه »

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائتين

« العلم إن قارنته الخشية — فلك وإلا فعليك »

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المائتين

« متى آلمك عدم إقبال الناس عليك ، أو توجههم بالذم إليك — فارجع إلى علم الله فيك فإن كان لا يقنعك علمه — فمصيبتك بعدم قباعتك بعلمه — أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم »

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المائتين

« إنما أجرى الأذى على أيديهم كى لا تكون ساكنا إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء ، حتى لا يشغلك عنه شيء »

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المائتين

« إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك — فلا تغفل أنت عن ناصيتك بيده »

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المائتين

« جعله لك عدوا ؛ ليحوشك به إليه ، وحرك عليك النفس ؛ ليدوم إقبالك عليه .

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائتين

« من أثبت لنفسه تواضعا — فهو المتكبر حقا : إذ ليس التواضع إلا عن رفعة ؛
فمتى أثبت لنفسك تواضعا — فأنت المتكبر حقا »

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائتين

« ليس المتواضع ، الذى إذا تواضع — رأى أنه فوق ما صنع ، ولكن المتواضع ،
الذى إذا تواضع — رأى أنه دون ما صنع »

الحكمة الأربعون بعد المائتين

« التواضع الحقيقى — هو ما كان ناشئا عن شهود عظمته ، وتجلى صفته »

الحكمة الحادية والأربعون بعد المائتين

« لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف »

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائتين

« المؤمن يشغله الشاء على الله عن أن يكون — لنفسه — شاكرا ، وتشغله حقوق
الله عن أن يكون — لحظوظه — ذاكرا »

الحكمة الثالثة والأربعون بعد المائتين

« ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضا ، أو يطلب منه غرضا ؛ فإن
المحب من يبذل لك ، ليس المحب من تبذل له »

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المائتين

« لولا ميادين النفوس — ما تحقق سير السائرين ، إذ لا مسافة بينك وبينه ؛ حتى

تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه ؛ حتى تمحوها وصلتك »

الحكمة الخامسة والأربعون بحمد المائتين

« جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ؛ ليعلمك جلاله قدرك بين مخلوقاته ، وأنتك جوهره ، تنطوي عليك أصداف مكوناته »

الحكمة السادسة والأربعون بحمد المائتين

« إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك »

الحكمة السابعة والأربعون بحمد المائتين

« الكائن في الكون ، ولم تفتح له ميادين الغيوب — مسجون بمحيطاته ، ومحصور في هيكل ذاته »

الحكمة الثامنة والأربعون بحمد المائتين

« أنت من الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته — كانت الأكوان معك »

الحكمة التاسعة والأربعون بحمد المائتين

« لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية : إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار : ظهرت في الأفق ، وليست منه : تارة تشرق شمس أوصافه على ليل وجودك وتارة يقبض ذلك عنك ، فيردك إلى حدودك ، فالنهار ليس منك وإليك ، ولكنه وارد عليك »

الحكمة الخمسون بحمد المائتين

« دل بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه ،

وبشوت أوصافه على وجود ذاته ؛ إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه ؛ فأرباب الجذب — يكشف لهم عن كمال ذاته ، ثم يردهم إلى شهود صفاته ، ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه ، ثم يردهم إلى شهود آثاره ، والساكون على عكس هذا ، فنهاية السالكين — بداية المجذوبين ، وبداية السالكين — نهاية المجذوبين ، لكن لا بمعنى واحد ؛ فربما التقيا في الطريق : هذا في ترقيه ، وهذا في تدليه »

الحكمة الحادية والخمسون بعد المائتين

« لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا في غيب الملكوت ، كما لا تظهر أنوار السماء إلا في شهادة الملك »

الحكمة الثانية والخمسون بعد المائتين

« وجدان ثمرات الطاعات عاجلا — بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا »

الحكمة الثالثة والخمسون بعد المائتين

« كيف تطلب العوض على عمل — هو متصدق به عليك ؟ أم كيف تطلب الجزاء على صدق — هو مهديه إليك ؟ »

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المائتين

« قوم تسبق أنوارهم أذكارهم ، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم ، وقوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم ، وقوم لا أذكار ولا أنوار — نعوذ بالله من ذلك — »

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المائتين

« ذاكر ذكر ؛ ليستير قلبه ، وذاكر استثار قلبه ؛ فكان ذاكرا ، والذي استوت أذكاره وأنواره — فبذكره يهتدى ، وبنوره يقتدى »

الحكمة السادسة والخمسون بعد المائتين

« ما كان ظاهر ذكر - إلا عن باطن شهود وفكر »

الحكمة السابعة والخمسون بعد المائتين

« أشهدك من قبل أن يستشهدك ، فنطقت بالهيته الظواهر ، وتحققت بأحدثه القلوب والسرائر »

الحكمة الثامنة والخمسون بعد المائتين

« أكرمك بكرامات ثلاث : جعلك ذاكرا له ، ولولا فضله - لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك ، وجعلك مذكورا به ؛ إذ حقق نسبته لديك ، وجعلك مذكورا عنده ، فتمَّ نعمته عليك »

الحكمة التاسعة والخمسون بعد المائتين

« رب عمر - اتسعت آماده ، وقلت أمداده ، ورب عمر - قليلة آماده كثيرة أمداده »

الحكمة الستون بعد المائتين

« من بورك له في عمره - أدرك في يسير من الزمن - من ممن الله تعالى - مالا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة »

الحكمة الحادية والستون بعد المائتين

« الخذلان كل الخذلان - أن تتفرغ من الشواغل ، ثم لا تتوجه إليه ، وتقل عوائقك ، ثم لا ترحل إليه »

الحكمة الثانية والستون بعد المائتين

« الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار »

الحكمة الثالثة والستون بعد المائتين

« الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت — فلا إضاءة له »

الحكمة الرابعة والستون بعد المائتين

« الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة جهود وعيان : فالأولى لأرب الاعتبار ، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار » .

تقريب الحكم وشرحها

الحكمة الأولى

قال ابن عطاء الله :

” مِنْ عَلَامَاتِ الْاعْتِمَادِ عَلَى الْعَمَلِ - نُقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ “

قال ابن عباد :

أقول : الاعتماد على الله تعالى نعت العارفين الموحدين ، والاعتماد على غيره وصف الجاهلين الغافلين ، كائنا ما كان ذلك الغير ، حتى علومهم وأعمالهم وأحوالهم . أما العارنون الموحدون فإنهم على بساط القرب والمشاهدة ناظرون إلى ربهم ، فانون عن أنفسهم ، فإذا وقعوا في زلة ، أو أصابتهم غفلة ، شهدوا تصريف الحق تعالى لهم ، وجريان قضائه عليهم ، كما أنهم إذا صدرت عنهم طاعة ، أو لاح عليهم لائح من يقظة ، لم يشهدوا في ذلك أنفسهم ، ولم يروا فيها حولهم ولا قوتهم ؛ لأن السابق إلى قلوبهم ذكر ربهم ، فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره . وقلوبهم ساكنة بما لاح لها من أنواره ، ولا فرق عندهم بين الحالين ، لأنهم غرقى في بحار التوحيد ، قد استوى خوفهم ورجاؤهم فلا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان ، ولا يزيد في رجائهم ما يأتون به من الإحسان .

(١) الاعتماد على الشيء ، الاستناد عليه ، والركون اليه .

(٢) العمل : حركة الجسم أو القلب ، فان تحرك بما يوافق الشريعة سمي طاعة وان تحرك بما يخالف الشريعة سمي معصية .

(٣) نقصان الرجاء : أى الرجاء في الله تعالى .

(٤) الزلل : الزلة : السقطة والخطيئة .

قال شارح المجالس : العارفون قائمون بالله قد تولى الله أمرهم ، فإذا ظهرت منهم طاعة ، لم يرجوا عليها ثوابا ؛ لأنهم لم يروا أنفسهم عمّالا لها ، وإن ظهرت منهم زلة فالدية على القاتل ، لم يشاهدوا غيره في الشدة والرخاء ، قيامهم بالله ، ونظرهم إليه ، وخوفهم هيئته ، ورجاؤهم الأنس به أه . وأما غيرهم فبقوا مع نفوسهم في نسبة الأعمال والأفعال اليها ، وطلبوا الحظ لها وعليها ، فاعتمدوا على أعمالهم وسكنوا إلى أحوالهم ، فإذا وقعوا في زلة نقص بذلك رجائهم ، كما أنهم إذا عملوا طاعة جعلوها من أعظم عددهم وأقوى معتمدتهم ، فتعلقوا بالأسباب ، وحُجِبُوا بتفرقهم بها عن رب الأرباب ، فمن وجد هذه العلامة في نفسه ؛ فليعرف منزلته وقدره ، ولا يتعد طوره ؛ فيدعى مقامات الخاصة من المقربين ، وإنما هو من عامة أصحاب اليمين .

وستأتى إشارات إلى هذا المعنى في مواضع من كلام المؤلف ، قدس الله سره ، وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، والحافظ أبو نعيم الأصفهاني عن يوسف بن الحسين الرازى رضى الله عنهم ، قال : عارضنى بعض الناس فى كلام ، وقال لى : لا تستدرك مرادك من عملك إلا أن تتوب ، فقلت مجيبا : لو أن التوبة تطرق بآى ما أذنت لها ، على أنى أنجو بها من رى ، ولو أن الصدق والإخلاص كانا عبيدين لى ، لبعتهما زهدا منى فيهما ، لأنى إن كنت عند الله فى علم الغيب سعيدا مقبولا ، لم أتخلف باقتراف الذنوب والمآثم ، وإن كنت عنده شقيا مخذولا — لم تسعدنى توبتى وإخلاصى وصدقى ، وإن الله خلقتنى إنسانا بلا عمل ، ولا شفيع كان لى إليه ، وهدانى لدينه الذى ارتضاه لنفسه ، فقال الله تعالى : ومن يَتَّبِعْ غَيْرَ الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين^(١) . فاعتمادى على فضله وكرمه أولى بى إن كنت حرا عاقلا من اعتمادى على أفعالى المدخولة ، وصفائى المعلولة ؛ لأن مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلة معرفتنا بالكريم المتفضل . قلت : وهذه الحكاية وأمثالها ربما تفرع سمع من لا حقيقة عنده من طريق القوم ، فينكر معناها ، ولا يعتقده ، أو يسلمه ، ويدعيه مقاما لنفسه ، وكلتا الحالتين مؤدية بصاحبها إلى

(١) آية ٨٥ سورة آل عمران .

ضرر وخطر ، فليتنق الله عبد ليس له بصر في هذه الطريقة — أن ينكر ما ذكرناه ، فيقع في الاعتراض على السادة والأولياء ، وفي ذلك بعده من الله تعالى ، أو يدعيه مقاما لنفسه ، من غير أن يستظهر عليها ويتوثق منها ، ويزنها بالمعيار الذي نهينا عليه ، ومحل وجود ذلك ممن لم يصحح مقام الغناء عن النفس ، فيرتكب حينئذ مساحط الله تعالى ، ويتعدى حدوده ويجعل ذلك حجة لنفسه غلطا وجهلا ، وهذا باب من الزندقة ، والعياذ بالله سبحانه .

تعقيب

من علامات تعويل العامل على عمله ، وركونه اليه — نقصان رجائه في رحمة الله عند وجود زلله ، ومفهوم هذا رجحان الرجاء عند التحلى بصالح العمل ، والتخلي عن الخطيئة والزلل . ومقصود المؤلف هو تنشيط السالك المجد في الطاعات وأفعال الخير ورفع همته عن الاعتماد عليها إلى الاعتماد على فضل الله . وليس مقصوده الأمر بترك العبادة ، فقد كان من أعظم العباد في حياته كلها ، ودعوته إلى الاجتهاد في العبادة واضحة في مؤلفاته ، فالمؤلف أراد بهذه الحكمة عدم التعويل على الأعمال ، والاعتماد على فضل الله ، حتى لا يقنط مخطيء من رحمة ربه ، بل يطمع دائما في رحمته ، ويجعل نصب عينيه قوله تعالى : وهو الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ، ويعلم ما تفعلون “ (آية ٢٥ من سورة الشورى) وقوله صلى الله عليه وسلم : لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته . رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما : عن أنى هريرة رضى الله عنه “

الحكمة الثانية

قال ابن عطاء الله :

” إِرَادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي الْأَسْبَابِ — مِنَ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ ،
وإِرَادَتُكَ الْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي التَّجْرِيدِ — انْحِطَاطٌ عَنِ الْهَمَّةِ الْعَلِيَّةِ “

قال ابن عباد :

الأسباب ها هنا عبارة عما يُتوصَّلُ به الى غرض ما ينال في الدنيا ، والتجريد عبارة عن عدم تشاغله بتلك الأسباب ، لأجل ذلك فمن اقامه الحق تعالى في الأسباب وأراد هو الخروج منها ، فذلك من شهوته الخفية ، وإنما كانت من الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى به ، واراदته هو خلاف ذلك ، وإنما كانت خفية ، لأنه لم يقصد بذلك نيل حظ عاجل ، وإنما قصد بذلك التقرب الى الله تعالى بكونه على حال هي أعلى بزرعمه ، لكن فاته الأدب بعدم وقوفه مع مراد الله تعالى من اقامته

(١) التجريد في اللغة : الإزالة ، وعند الصوفية ثلاثة أقسام : تجريد الظاهر فقط ، أو الباطن فقط ، أوهما معا ، فتجريد الظاهر ، هو ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله ، وتجريد الباطن : هو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله ، وتجريد هما معا : هو إفرااد القلب والقلب لله (إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة ص ١٥ ، ١٦) .

(٢) إِرَادَتُكَ التجريد : أى ميل نفسك الى التجريد عن الأسباب الظاهرية .

(٣) مع إقامة الله إياك في الاسباب : علامة ذلك : أن يهيئها لك .

(٤) من الشهوة الخفية : أى من شهوات النفوس التي تدعو اليها الخفية .

(٥) ارادتك الأسباب : أى التسبب والاكتساب .

(٦) مع اقامة الله إياك في التجريد : أى بأن يسر لك القوت من حيث لا تحتسب .

(٧) الانحطاط : النزول من علو الى أسفل ، الهمة : قوة انبعاث في النفس الى مقصود ما .

(٨) المحطاط عن الهمة العلية : لإرادة الرجوع الى الخلق ، بعد التعلق بالحق .

إياه فيما أقامه فيه وتطلعه الى مقام رفيع ، لا يليق به في الوقت ، وعلامة إقامته إياه في الأسباب أن يدوم له ذلك ، وأن تحصل له ثمرته ونتيجته ، وذلك بأن يجد عند تشاغله بالأسباب سلامة في دينه ، وقطعا لمطمعه عن غيره ، وحسن نيته في صلة الرحم ، أو إعانة فقير مُعْدَم ، الى غير ذلك من فوائد المال المتعلقة بالدين ، ومن أقامه الحق تعالى في التجريد ، وأراد الخروج منه الى الأسباب — فذلك من انحطاط همته ، وسوء أدبه ، وكان واقفا مع شهوته الجلية ، لأن التجريد مقام رفيع ، أقام الحق فيه خواص عباده من الموحدين والعارفين .

فاذا أقامه الحق تعالى في مقام الخواص — فَلِمَ ينحط عن رتبهم الى منازل أهل الانتقاص ؟

قال الشيخ أبو عبد الله القرشي — رضى الله عنه : من لم يأنف من مشاركة الاضداد في الأسباب فهو خسيس الهمة ، وعلامة إقامته إياه في التجريد — ما ذكرناه من الدوام ، ووجدان الثمرة ، ومن ثمرات ذلك طيب وقت المتجرد ، وصفاء قلبه ، ووجدان راحته من ملابسة الخلق ومخالطتهم ، والهمة حالة للقلب ، وهى قوة ارادة وغلبة انبعاث الى نيل مقصود ما ، وتكون عالية إن تعلقت بمعالى الأمور ، وسافلة إن تعلقت بأدانيها ، قال الشاعر وأجاد :

وقائلة لِمَ عَلَثَكَ الهموم وأمرك ممثّل في الأم
فقلت : ذرينى على حَالَتى فإن الهموم بقدر الهمم

وقال الآخر :

إذا أعطشتك أكف اللّام كَفَتْكَ القنّاعةُ شَيْعاً وربّاً
فكن رَجُلًا رَجُلُهُ فى الثرى وهامةُ هِمَّتِهِ فى الثرى
فإن إِرَاقَةَ ماء الحيا ة دون إِرَاقَةِ ماء المُحَيّا

وما ذكرته من معانى الإقامة في نوعى الأسباب والتجريد — هو شيء فهمته مما يقوله بعد هذا : من علامة إقامة الحق لك في الشيء إدامته إياك فيه ، مع حصول النتائج ، والله أعلم ، وقد ذكر في التنوير هذه المسألة بنصها ، حاكيا عن هذا الكتاب ، وقال بأثره : وافهم رحمك الله أن من شأن العدو أن يأتيك فيما أنت فيه بما أقامك الله ، فيحقره عندك ، يتطلب غير ما أقامك الله فيه ؛ فيشوش عليك

قلبك ، ويكدر وقتك ، وذلك أنه يأتي للمتسبين فيقول لهم : لو تركتم الأسباب ، وتجردتم لأشرفت لكم الأنوار ، ولصفت منكم القلوب والأسرار ، ويقول : وكذلك صنع فلان وفلان ، ويكون هذا العبد ليس مقصودا بالتجريد ، ولا طاقة له به ، إنما صلاحه في الأسباب ، فيتركها ، فيتزلزل إيمانه ، ويذهب إيقانه ، ويتوجه الى الطلب من الخلق ، والى الاهتمام بأمر الرزق ، فيرمى في بحر القطيعة ، وذلك قصد العدو منه ، لأنه إنما يأتيك في صورة ناصح ، كما أتى أبويك فيما أخبر الله تعالى عنه ، بقوله تعالى : ” وقال ما نهأكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين“ (١) . كما تقدم بيانه ، وكذلك يأتي التجردين ، ويقول لهم : الى متى تتركون الأسباب ؟ ألم تعلموا أن ترك الأسباب تتطلع معه القلوب الى مافي أيدي الناس ، ويفتح باب الطمع ، ولا يمكنكم الاسعاف والإيثار ، ولا القيام بالحقوق ؟ وعوض ما تكون منتظرا لما يفتح به عليك من الخلق . فلو دخلت في الأسباب بقي غيرك منتظرا ما يفتح به عليه منك الى غير ذلك ، ويكون هذا العبد قد طاب وقته ، وانبسط نوره ، ووجد الراحة بالانقطاع عن الخلق ، فلا يزال به حتى يعود الى الأسباب فتصيبه كدرتها ، وتغشاها ظلمتها ، ويعود الدائم في سببه أحسن حالا منه ، لأن ذلك ماسلك طريقا ثم رجع عنها ، ولا قصد مقصدا ثم انعطف عنه ، فافهم ، واعتصم بالله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم“ (٢) . وإنما قصد الشيطان بذلك أن يمنع العباد الرضا عن الله تعالى فيما هم فيه ، وأن يخرجهم عن مختار الله لهم الى مختارهم لأنفسهم ، وما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه ، وما دخلت فيه بنفسك ، وكلك إليه ” وقل رب أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً“ (٣) .

فالمدخل الصدق أن تدخل فيه لا بنفسك ، والمخرج الصدق أيضا كذلك ، فافهم . والذي يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك ، حتى يكون الحق سبحانه

(١) آية ٢٠ ، ٢١ من سورة الأعراف .

(٢) آية ١٠١ من سورة آل عمران .

(٣) آية ٨٠ من سورة الإسراء .

هو الذى تولى إخراجك كما تولى إدخالك ، وليس الشأن أن تترك السبب ، بل الشأن أن يتركك السبب . قال بعضهم : ” تركت السبب كذا كذا مرة ، فعدت إليه ، ثم تركنى السبب فلم أعد إليه ، ودخلت على الشيخ رضى الله عنه ، وفى نفسى العزم على التجريد ، قائلا فى نفسى : إن الوصول الى الله تعالى على هذه الحالة بعيد من الاشتغال بالعلوم الظاهرة ، ووجود المخالطة للناس ، فقال لى من غير أن أسأله : صحبنى انسان مشغول بالعلوم الظاهرة ، ومتصدر فيها ، فذاق من هذه الطريق شيئا ، فجاء إلى ، فقال : يا سيدى ، أخرج عما أنا فيه ، وأتجرد لصحبتك ؟ فقلت : ليس الشأن ذا ، ولكن امكث فيما أنت فيه ، وما قسم الله لك على أيدينا ، فهو إليك واصل . ثم قال الشيخ ، ونظر إليّ وهكذا شأن الصديقين ، لا يخرجون من شيء ، حتى يكون الحق — سبحانه وتعالى — هو الذى يتولى إخراجهم ، فخرجت من عنده ، وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ، ووجدت الراحة بالتسليم الى الله تعالى ، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ ” هم القوم لا يشقى بهم جليسهم “ انتهى كلامه فى التنويز فى هذا المعنى ،^(١) وهو كلام حسن . وإنما اثبتناه هنا على طوله ، لأنه تولى فيه بيان مسأله التى ذكرها فى هذا الكتاب بنفسه بيانا شافيا ، فنقلناه بلفظه ، وددنا لو أن جميع مسائله تكون هكذا .

(١) أى : إن الواجب على السالك أن يمكث فيما أقامه الله فيه ، ويرضى به ، حتى يتولى الله إخراج منه ، ولا يخرج بنفسه وإرادته ، وتزيين الشيطان له .

الحكمة الثالثة

قال ابن عطاء الله :

« سَوَابِقُ الْهَمَمِ ^(١) . لَا تَحْرِقُ أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ »

قال ابن عباد :

الهمم السوابق : هى قوى النفس التى تنفعل عنها بعض الموجودات باذن الله تعالى ، وتسميها الصوفية « همة » فيقولون : أحال فلان همته على أمر ما ، فانفعل له ذلك ، وهذه الهمم السابقة لا تنفعل الأشياء عنها إلا بالقضاء والقدر ، وهو معنى قولنا : بإذن الله تعالى . فهى على حال سبقيتها ونفوذها — لا تحرق أسوار الأقدار ، ولا تنفذها ، وهذه الهمم قد تكون للأولياء كرامات ، وقد تكون لغيرهم استدراجا ، ومكرا ، كما تكون للعائن والساحر ، وقد ثبت أن العين حق ، والسحر حق ، ومعناه ما ذكرنا . وحاصل ذلك : أنه يجب أن يعتقد أنها أسباب لا تأثير لها ، ولا فاعلية ، وأن الفاعل هو الله تعالى وحده عندها لا بها ، وكأن المؤلف رحمه الله إنما أورد هذه المسألة بين كلامه فى التدبير ، ليعرفك بذلك أن وجود التدبير لا جدوى له ، ولا فائدة ؛ لأن الهمة الفعالة إذا لم تفد فى خرق أسوار الأقدار شيئا ، كيف يفيد فى ذلك التدبير ، وما لا فائدة فيه فضول ، لا ينبغي أن يتشاغل به ، ويتعب فيه ذوو العقول ولذلك قال :

(١) سوابق الهمم : أى الهمم السوابق : ذات السبق والتقدم : أى سريعة التأثير وهى قوى النفس التى تنفعل عنها الأشياء بإرادة الله تعالى وإذنه .

وسوابق الهمم : من إضافة الصفة الى الموصوف .

(٢) أسوار الأقدار : من إضافة المشبه به الى المشبه . ومعنى الحكمة : ان الهمم مع سبقها وسرعة تأثيرها ، وإمكان نفوذها — لا تحرق أقداره تعالى المصونة المحفوظة التى كأنها مدينة ذات أسوار فولاذية لا تحرق ، ولا تنفذ فيها القوى ، مهما عظمت . ومن ثم فيجب اعتقاد أن الهمم أسباب لا تأثير لها ، ولا فاعلية ، وأن الفاعل هو الله وحده ، وما ينشأ عنها إنما هو بقضاء الله وقدره .
وهذه الحكمة تعليل للحكمة التى قبلها ، وتمهيد للحكمة التى بعدها .

الحكمة الرابعة

قال ابن عطاء الله :

« أَرِخْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ^(١) ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ — لَا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ »

قال ابن عباد :

تدبير الخلق لأمر دنياهم على الوجه الذى نقوله مذموم ، لأن الله تعالى قد تكفل لهم بذلك ، وقام به عنهم ، وطلب منهم أن يفرغوا قلوبهم منه ، ويقوموا بحق عبوديته ، ووظائف تكليفاته فقط ، وهو أن يقدر العبد لنفسه شئونا يكون عليها من أمر دنياه على ما تقتضيه شهوته وهواه ، ويدبر لها ما يليق بها من أحوال وأعمال ، ويستعد لذلك ، ويهتم لأجله ، وهذا تعب عظيم ، استعجله لنفسه ، ولعل أكثر ما يقدره لا يقع ، فيخيب ظنه ، ويطل سعيه ، ثم فيه من ترك العبودية ، ومضادة أحكام الربوبية ، ومنازعة القدر ، وإضاعة العمر — ما يحمل العاقل على تركه واجتنابه ، وقطع مواده وأسبابه ، قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه^(٢) :

(١) التدبير لغة : هو النظر فى الأمور وأواخرها . وفى الاصطلاح — كما يفهم من كلام الشيخ « زروق » وهو قمة من قمم التصوف — التدبير ثلاثة أقسام : قسم مذموم وقسم مطلوب ، وقسم مباح . فأما القسم المذموم فهو الذى يصحبه الجزم والتصميم دينيا أو دنيويا . وأما المطلوب فهو تدبير ما تكلفه من الواجبات ، وما تندب إليه من الطاعات مع تفويض المشيئة والنظر الى القدرة . وهذا يسمى النية الصالحة . وقد قال عليه السلام : « نية المؤمن خير من عمله » وأما القسم المباح فهو التدبير فى أمر دنيوى أو طبعى مع التفويض للمشيئة وعليه يحمل قوله (ص) التدبير نصف العيش . والتدبير الذى دعا — العارف بالله « ابن عطاء » المرید أن يريح نفسه منه — هو التدبير المنافى للعبودية . بأن تقول : لولا فعلت كذا ما كان كذا ، ولو أنى فعلت كذا كان كذا ، فان الله تعالى دبر الأشياء فى سابق علمه وما قام به غيرك عنك ، لا تقم به لنفسك .

(٢) هو أبو محمد سهل بن عبد الله : أخذ أئمة الصوفية وعلمائهم . توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين من الهجرة .

ذروا التدبير والاختيار ، فانهما يكدران على الناس عيشهم . وقال سيدى أبو الحسن الشاذلى^(١) : ان كان ولا بد أن تدبروا ، فدبروا أن لا تدبروا ، وهذه المسألة أساس طريق القوم ، بل هى جملته وكليته ، والكلام فيها طويل عريض ، وانما اقتصرنا فيها على هذا القدر اليسير من التنبيه ، لأن المؤلف — رحمه الله — أفرد فى هذا المعنى كتابا سماه « التنوير فى إسقاط التدبير » أحسن فيه غاية الإحسان ، وقرب الأمر فيه بحيث يستغنى به عما صنف فى هذه الطريقة من ديوان ، فتحصيله متعين على كل مرید نجيب .

(١) أبو الحسن الشاذلى (٥٩٣ هـ — ٦٥٦ هـ) ينتهى نسبه وسنده كما يقول المترجمون له الى الحسن بن على بن ابي طالب ، وكان مبدأ ظهوره ببلدة شاذلة وهى قرية من تونس .

الحكمة الخامسة

قال ابن عطاء الله :

« اجْتَهِادُكَ^(١) فِيمَا ضُمِّنَ لَكَ ، وَتَقْصِيرُكَ^(٢) فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ — دَلِيلٌ عَلَى
انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ^(٣) مِنْكَ »

قال ابن عباد :

الشيء المضمون للعبد هو رزقه الذى يحصل له به قوام وجوده فى دنياه ، ومعنى كونه مضمونا أن الله تعالى تكفل بذلك ، وفرغ العباد عنه ، ولم يطلب منهم الاجتهاد فى السعى فيه ، ولا الاهتمام له ، والشيء المطلوب من العبد هو العمل الذى يتوصل به الى سعادة الآخرة ، والقرب من الله تعالى من عبادات وطاعات ، ومعنى كونه مطلوباً أنه موكول الى اكتساب العبد له ، واجتهاده فيه ، ومراعاة شروطه وأسبابه وأوقاته ، بهذا جرت سنة الله تعالى فى عبادته . قال الله عز وجل — فى المعنى الأول الذى ضمنه للعبد — : « وَكَأَيُّنَ مِنْ ذَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ، اللَّهُ يَرْزُقُهَا ، وَإِيَّاكُمْ^(٤) » وقال تعالى — فى المعنى الثانى الذى طلبه منه — : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى^(٥) » وقد روى فى بعض الآثار أن الله تعالى يقول : « عِبْدِي أُطِيعْنِي فِيهَا أَمْرُكَ ، وَلَا تُعَلِّمْنِي بِمَا يُضِلُّحُكَ »

(١) اجتهادك : الاجتهاد فى الشيء : است فراغ الجهد والطاقة فى طلبه .

(٢) التقصير : التفريط والتضييع .

(٣) البصيرة : عين فى القلب تدرك الأمور المعنوية ، كما أن البصر يدرك الأمور الحسية ؛ فالبصيرة لا ترى

إلا المعانى ، والبصر لا يرى إلا المحسوسات . وانطماس البصيرة : عماها .

(٤) آية ٦٠ من سورة العنكبوت .

(٥) آية ٣٩ من سورة النجم .

وذكر في الخبر عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « ما بال أقوام يُشرفون المترفين ، ويستخفون بالعابدين ، ويعملون بالقرآن ما وافق أهواءهم ، وما خالف أهواءهم تركوه ، فعند ذلك يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، يسعون فيما يدرك بغير سعى من القدر المقدور ، والأجل المكتوب ، والرزق المقسوم ولا يسعون فيما لا يدرك إلا بالسعى من الجزاء الموفور ، والسعى المشكور ، والتجارة التي لا تبور »

وقال ابراهيم الخواص : « العلم كله في كلمتين : لا تتكلف ما كُفيت ، ولا تُضيّع ما استُكفيت » فمن قام بهذا الأمر على ما ينبغي له من الوجه الذي ذكرناه من الاجتهاد في الأمر المطلوب منه ، وتفرغ القلب عن الأمر المضمون له — فقد انفتحت بصيرته وأشرق نور الحق في قلبه ، وحصل على غاية المقصود ، ومن عكس هذا الأمر فهو مطموس البصيرة ، أعمى القلب ، وفعله دليل على ذلك ، والبصيرة ناظر القلب ، كما أن البصر ناظر العين ، وناظر القلب إنما ينظر الى العاقبة ، والعاقبة للمتقين ، فالتقوى هي التي يجب على العبد أن يجتهد فيها ، ويقصر عما يمنعه منها ، وتعبير المؤلف رحمه الله بالاجتهاد — إشعار بأن طلب الرزق من غير اجتهاد فيه — غير مقصود بالكلام ، وهو كذلك ، لأنه مباح ومأذون فيه ، فلا يدل ذلك على انطماس بصيرة صاحبه إلا إن اقترن به تقصير فيما أمر به^(١) .

قال في « التنوير »^(٢) في قوله تعالى — « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك »^(٣) ، أى : قم بخدمتنا ، ونحن نقوم لك بقسمتنا ، وهما شيئان : شيء ضمنه الله لك ، فلا تهمه ، وشيء طلبه منك ، فلا تهمله ، فمن اشتغل بما ضمن له عما طلب منه — فقد عظم جهله ، واتسعت غفلته ، وقل أن ينتبه

(١) يفهم من الحكمة : أن دليل انطماس البصيرة هو اجتماع الأمرين : أى الاجتهاد في طلب الرزق مع التقصير في العمل . أما الاجتهاد في طلب الرزق الحلال من غير تقصير في العبادة والطاعة فإنه يكسب الخير ، ويعقب الأجر ، لأنه مطلوب بقوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » آية ١٥ من سورة الملك .

(٢) « التنوير فى إسقاط التدبير » لابن عطاء الله السكندرى ، وهو واحد من كتب السادة الصوفية التي لها وزنها .

(٣) آية ١٣٢ من سورة طه .

لمن يوقظه بل حقيق على العبد أن يشتغل بما طلب منه عما ضمن له ، إذا كان الله سبحانه وتعالى قد رزق أهل الجحود كيف لا يرزق أهل الشهود ، وإذا كان سبحانه قد أجرى رزقه على أهل الكفران ، كيف لا يجرى رزقه على أهل الإيمان ؟!

فقد علمت أيها العبد أن الدنيا مضمونة لك ، أى مضمون لك منها ما يقوم بأودك ، والأخرة مطلوبة منك ، أى العمل لها ، لقوله سبحانه وتعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » فكيف يثبت لك عقل أو بصيرة ، واهتمامك فيما ضمن لك - اقتطعك عن اهتمامك بما طلب منك من أمر الآخرة ، حتى قال بعضهم : « إن الله تعالى ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة ، فليته ضمن لنا الآخرة ، وطلب منا الدنيا .

تعقيب

اجتهادك واهتمامك الشاغل عن العبادة فيما ضمن لك من الدنيا ، مما تقوم به حياتك من غذاء وكساء ونحو ذلك ، وتقصيرك وتفريطك فيما طلب منك من العبادات والطاعات وغيرها مما يتوصل به الى الله ، ويصلح به أمرك في الآخرة دليل وبرهان على عمى البصيرة منك وقانا الله شر ذلك .

الحكمة السادسة

قال ابن عطاء الله :

« لَا يَكُنْ تَائُخِرَ أَمَدِ الْعَطَاءِ — مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ — مُوجِباً لِيَأْسِكَ ^(١) ،
فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الْإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُهُ لَكَ ، لَا فِيمَا تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ ، وَفِي الْوَقْتِ
الَّذِي يُرِيدُ لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ »

قال ابن عباد :

حكم العبد أن لا يتخير شيئاً على مولاه ، ويجزم بصلاحيته حال من الأحوال
له ، لأنه جاهل من كل وجه ، قد يكره الشيء ، وهو خير له ، ويجب الشيء ،
وهو شر له .

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي — رضى الله عنه —: لا تختار من أمرك شيئاً ،
واختار أن لا تختار ، وفر من ذلك المختار ، ومن فرارك ، ومن كل شيء الى الله عز
وجل « وربك يخلق ما يشاء ويختار » ^(٢)

ودخل رجل على سيدي أبي العباس المرسى — رضى الله عنه — وهو يتألم
لمابه ، فقال ذلك الرجل : « عافاك الله يا سيدي » فسكت ، ولم يجاوبه ، ثم سكت
ذلك الرجل ساعة ، وقال : « الله يعافيك يا سيدي » فقال له الشيخ أبو العباس :
« وأنا ، ما سألت الله العافية ؟ فقد سألته العافية ، والذي أنا فيه هو العافية ، هذا
رسول الله ﷺ ، قد سأل الله العافية ، وقد قال ، « ما زالت أكلة خبير تعاذني
والآن قطعت أبهرى » ^(٣)

(١) أمد : زمن . الإلحاح : المداومة في الدعاء . اليأس : قطع الرجاء والأمل .

(٢) من آية ٦٨ من سورة القصص .

(٣) الأبهَرُ : الأورطى ، وهو الشريان الرئيسي الذي يحمل الدم الى القلب .

وسيدنا أبو بكر — رضى الله عنه — سأل الله العافية ، وبعد ذلك مات مسموماً^(١) وسيدنا عمر — رضى الله عنه — سأل الله العافية — وبعد ذلك مات مطعوناً ، وسيدنا عثمان — رضى الله عنه — سأل الله العافية ، وبعد ذلك مات مذبوحاً ، وسيدنا علي — رضى الله عنه — سأل الله العافية ، وبعد ذلك مات مقتولاً ، فاذا سألت الله العافية ، فاسأله من حيث يعلم أنها لك عافية . أه .

فعلى العبد أن يسلم نفسه الى مولاه ، ويعلم أن الخيرة له فى جميع ما به يتولاه ، وان خالف ذلك مراده وهواه ، فاذا دعا وطلب من مولاه شيئاً ، يرى أن له فيه مصلحة أيقن بالاجابة لا محالة ، قال الله عز وجل : « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »^(٢) وقال تعالى : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ »^(٣) .

وعن جابر — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل ، أو كف عنه من السوء مثله ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، وعن أنس — رضى الله عنه — عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : ما من داع يدعو إلا استجاب الله له دعوته ، أو صرف عنه مثلها سوءاً ، أو حط من ذنوبه بقدرها ، ما لم يدع بإثم ، أو قطيعة رحم « فإذا الإجابة المطلقة حاصلة لكل داع بحق حسبها ورد الوعد الصدق ، إلا أن الإجابة أمرها الى الله تعالى ، يجعلها متى شاء ، وقد يكون المنع وتأخر العطاء — إجابة وعطاء ، لمن فهم عن الله تعالى ذلك ، فلا ييأس العبد من الله تعالى إذا رأى منعا أو تأخيراً ، وإن ألح فى دعائه وسؤاله ، وقد يكون تأخير ذلك الى الآخرة — خيراً له ، فقد جاء فى بعض الأخبار : يبعث عبد ، فيقول الله تعالى له : ألم أمرك برفع حوائجك إلّى ؟ فيقول نعم ، وقد رفعتها إليك ، فيقول الله تعالى ما سألت شيئاً

(١) لم يرد هذا الخبر فى مرجع معتمد ، ويبدو أنها شبهة راجت عند بعض المتأخرين ولا حقيقة لها ، فقد استفاضت الأخبار بأن أبى بكر مرض مرض الموت دون مقدمات من سم أو غيره ، ولعل أصحاب هذا الوهم يردونه الى أكلة اليهودية التى قدمت كراع الشاة الى رسول الله (ﷺ) (المراجع) .

(٢) من آية ٦٠ من سورة غافر .

(٣) من آية ١٨٦ من سورة البقرة .

إلا أجبته فيه ، ولكن نجزت لك البعض في الدنيا ، وما لم أنجزه في الدنيا فهو مدخر لك ، فخذ الآن ، حتى يقول ذلك العبد : « ليتني لم يقض لي حاجة في الدنيا » . وقد ورد عن رسول الله ﷺ — معنى النبي عن الاستعجال في إجابة الدعاء في قوله : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول : قد دعوت فلم يستجب لي » . وقد دعا موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام على فرعون فيما أنجز الله به عنهما ، حيث قالوا : ربنا اطمس على أموالهم واشذ على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم^(١) .

ثم أخبر أنه أجاب دعاءهما بقوله سبحانه وتعالى : قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون^(٢) . قالوا وكان بين قول الله تعالى لهما — قد أجيبت دعوتكما ، وهلاك فرعون — أربعون سنة .

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى — رضى الله عنه — في قوله تعالى « فاستقيما » أى على عدم استعجال ما طلبتما . « ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » هم الذين يستعجلون الإجابة ، وناهيك شرفا وحظا ما يتحصل له بسبب مداومة الدعاء من محبة الله تعالى وموافقة رضاه ، فقد روى عن النبي ﷺ — أنه قال : إن الله يحب الملحين في الدعاء .

وقد جاء في الحديث « قال جبريل عليه السلام يارب عبدك فلان ، اقض له حاجته ، فيقول : دعوا عبدي ، فإنى أحب أن أسمع صوته » رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ .

ومقتضى هذا أن من الناس من يعجل الله له نوال حاجته لكرهه صوته ، وقد روى هذا المعنى أيضا منصوصا ، فليكن العبد خائفا من ذلك عند تعجيل إجابة دعائه .

قال أبو محمد عبد العزيز المهدوى — رضى الله عنه — كل من لم يكن في دعائه تاركا لاختياره ، وراضيا باختيار الحق — فهو مستدرج ، وهو ممن قيل له :

(١) من آية ٨٨ من سورة يونس .

(٢) من آية ٨٩ من سورة يونس .

اقضوا حاجته فإني أكره أن أسمع صوته ، فإذا كان في دُعائه مع اختيار الحق تعالى ، لا مع اختيار نفسه — كان مجابا ، وإن لم يُعطَ ، والأعمال بخواتيمها . وقد تكون الإجابة مرتبة على شروط لا علم للداعي بها ، فتؤخر لعدم وقوع ذلك ، أو بعضه ، وذلك مثل وجود الاضطرار ، قال تعالى : « أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ^(١) » فرتب الإجابة على الاضطرار .

وقال بعض العارفين : إذا أراد الله أن يستجيب دعاء عبد ، رزقه الاضطرار في الدعاء ، والاضطرار لا يتحققه العبد من نفسه في جميع حالاته . قال بعضهم : المضطر الذي إذا رفع إلى الله يده لم ير لنفسه عملا ، وهذا حال شريف ، ومقام منيف ، يعسر على أكثر الناس الوصول إليه ، فكيف يتحقق ما يبنى عليه ؟ وفي المسألة التي بآثر هذا تنبيه على هذا المعنى .

تعقيب

لا يكن تأخر وقت العطاء المطلوب — مع الإلحاح — والمداومة في الدعاء — موجبا ليأسك من إجابة الدعاء ، فهو سبحانه وتعالى قد ضمن لك الإجابة بقوله تعالى — « ادعوني استجب لكم » — وبقوله تعالى : « أجيب دعوة الداع إذا دعان » — وذلك فيما يختاره لك ، لا فيما تختاره لنفسك ، لأن الله سبحانه أعلم منك بما يصلح لك ، فربما طلبت شيئا ، كان منعه خيرا لك ، فيكون المنع عطاء . قال تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وكذلك ضمن لك الإجابة في الوقت الذي يريده تعالى ، لا في الوقت الذي تريده أنت لنفسك ، كما جاء في دعاء موسى على فرعون .

(١) من آية ٦٢ من سورة النمل .

(٢) من آية ٢١٦ من سورة البقرة .

الحكمة السابعة

قال ابن عطاء الله :

« لَا يُشَكِّكَ فِي الْوَعْدِ عَدَمُ وَقُوعِ الْمَوْعُودِ ، وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ ، إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ قَدْحاً^(١) فِي بَصِيرَتِكَ ، وَإِحْمَاداً لِنُورِ سِرِّيرَتِكَ^(٢) . »

قال ابن عباد :

الحق سبحانه لا يخلف الميعاد ، فمن وعده مولاة شيئا ، وإن كان معين الزمن ، ثم لم يقع ذلك الموعد ، فلا ينبغي أن يشككه ذلك في صدق وعد ربه ، لجواز أن يكون وقوع ذلك الوعد معلقا على أسباب وشروط ، استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد ، فعلى العبد أن يعرف قدره ، ويتأدب مع ربه ، ويسكن إليه فيما وعده به ، ويطمئن إليه ، ولا يتشكك في ذلك ، ولا يتزلزل اعتقاده فيه ، فمن كان على هذا الوصف فهو عارف بالله تعالى ، سالم البصيرة ، منور السريرة ، وإلا فعلى العكس .

تعقيب

إن العارف بربه من يتأدب معه تعالى ، ويسكن اليه مطمئنا ، ولا يتشكك ، ولا يتزلزل اعتقاده عند تأخر ما وعده به ، أو عدم وقوعه . وقد يكون الموعد به معلقا على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها ، كما في قصة نوح عليه السلام ، حيث قال : « إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق » فوقف مع ظاهر العموم ، فقال له تعالى : « انه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ونحن إنما وعدناك بنجاة الصالح من أهلك . وإن فهمت العموم ، فعلمنا متسع .

(١) القدح في الشيء : التنقيص له ، والغض من مرتبته .

(٢) السريرة : ما يكتمه المرء في نفسه أو هي عين القلب . يقال : فلان طيب السريرة : أى طيب القلب .

الحكمة الثامنة

قال ابن عطاء الله :

« إِذَا فَتَحَ لَكَ وَجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ — فَلَا تُبَالٍ مَعَهَا أَنْ قَلَّ عَمَلُكَ ، فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ، وَالْأَعْمَالُ أَلَتْ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ ، وَأَيْنَ مَا تُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ^(١) . »

قال ابن عباد :

معرفة الله تعالى هى غاية المطالب ، ونهاية الآمال والمآرب ، فاذا وجه الله تعالى عبده ببعض أسبابها ، وفتح له باب التعرف له منها ، وأوجد له سكينة وطمأنينة فيها — فذلك من النعم الجزيلة عليه ، فينبغى أن لا يكثر بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر ، وما يترتب عليها من جزيل الأجر ، وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقربين المؤدى الى حقائق التوحيد واليقين ، من غير اكتساب من العبد ، وَلَا تَعْمَلْ ، والأعمال التى من شأنه أن يتلبس بها — هى باكتسابه وتعمله — فلا تسلم من دخول الآفات عليها والمطالبة بوجود الاخلاص فيها ، وقد لا يحصل له ما يريد من الثواب عند مناقشة الحساب ، وأين أحدهما من الآخر ؟ . ومثاله ما يصاب به الإنسان من البلايا والشدائد التى تنغص عليه لذات الدنيا ، وتمنعه من تكثير أعمال البر ، فان مراده أن يستمر بقاؤه فى دنياه ، طيب العيش ، ناعم البال ، ويكون حاله فى طلب سعادة الآخرة حال المترفعين المتورعين ، فلا تسخو نفسه الا بالأعمال الظاهرة ، التى لا كبير مؤنة عليها ، ولا مشقة ، ولا تقطع عليه لذته ،

(١) فتح هنا : بمعنى هيا ويسر . الوجهة : هى الجهة ، والمراد هنا : الباب والمدخل .

التعرف : طلب المعرفة : تقول : تعرف لى فلان : اذا طلب معنى معرفته .

المعرفة : تمكن حقيقة العلم بالمعروف من القلب حتى لا يمكن الفكك عنه بحال

فلا تبال معها أن قل عملك : بفتح هزة أن : أى فلا تبال معها بقلة عملك .

وآثرها على عبادة الثقلين والله أعلم . فإذا أنزل الله على العبد شيئا من البلايا ؛ ولا تفوته شهوته ، ومراد الله منه أن يطهره من أخلاقه اللئيمة ، ويحول بينه وبين صفاته الذميمة ، ويخرجه من أثر وجوده الى متسع شهوده ، ولا سبيل له الى الوصول الى هذا المقام على غاية الكمال والتمام الا بما يضاد مراده ، ويشوش عليه معتاده ، ويكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن ولا مناسبة بينها وبين الأعمال الظاهرة ، فاذا فهم هذا علم أن اختيار الله له ، ومراده منه — خير له من اختياره لنفسه ، ومراده لها .

. وقد روى أن الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه : أنزلت بعبدى بلاء ، فدعاني فمأطلته بالاجابة ، فشكاني ، فقلت : عبدى كيف أرحمك من شيء به أرحمك . وفي حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : « قال الله تبارك وتعالى : اذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى الى عواده أنشطته من عقالى ، وبدلته لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ويستأنف العمل .

قال أبو عبد الله محمد بن على الترمذى — رضى الله عنه — ولقد مرضت فى سالف أيامى مرضة ، فلما شفىنى الله تعالى منها — مثلت فى نفس ما دبر الله تعالى من هذه العلة فى مقدار هذه المدة وبين أن تكون لى عبادة الثقلين فى قدر أيام علتى ، فقلت : لوخيرت بين هذه العلة ، وبين عبادة الثقلين فى مقدار مدتها الى أيهما يميل اختيارى ؟ فصيح عزمى ، ودام يقينى ، ووقعت بصيرتى أن ما اختار الله تعالى أكثر شرفا ، وأعظم خطراً ، وأنفع عاقبة ، وهى العلة التى دبرها لى ، ولا شوب^(١) فيه اذا كان فعله ، فشتان^(٢) بين فعله بك لتنجو به ، وبين فعلك لتنجو به . فلما رأيت ذلك دق فى عيني عبادة الثقلين فى مقدار تلك المدة فى جنب ما آتانى ، فصارت العلة عندى نعمة ، وصارت النعمة منة ، وصارت المنة أملا ، وصار الأمل عطفاً ، فقلت فى نفسى : بهذا كانوا يستمرون فى البلاء على طيب النفوس مع الحق ، وبهذا الذى انكشف كانوا يفرحون بالبلاء . أه .

فهذه هى وجهة التعرف التى فتحها الله تعالى له ، وحصلت له الغبطة بها ،

(١) لا شوب فيه اذا كان فعله : أى لا شائبة فيه : أى لا شبهة فيه ولا عيب .

(٢) شتان : يقال شتان ما هما ، وشتان بينهما ، وشتان ما بينهما : أى بعد وعظم الفرق بينهما .

فليستشعر ما ذكرناه ، وليجعله نصب عينيه ، وليجدد تذكاره على نفسه ، حتى يحصل له من السكون والطمأنينة ما يحمل عنه أثقال ذلك ، ويزيل عنه مرارته ، ويوجده حلاوته ، وعند ذلك يكون حاله في بلائه حال الشاكرين من الفرح ، والاعتباط به ، فيرى من حق شكره أن يأتي بما يمكنه من أعمال بره ، واعتبر جميع ما قلناه في هذه المسألة بالحكاية التي ذكرها أبو العباس بن العريف رحمه الله في كتابه « مفتاح السعادة ومنهاج سلوك طريق الإرادة » قال فيه : كان بالمغرب عمره الله بالاسلام — رجل يدعى أبا الخيار — رحمه الله ، ونفعنا بذكره — أصله من صقلية ، وموطنه بغداد ، وجاوز سنه التسعين ، وهو في الرق لم يعتقه مولاه — وذلك منه عن قصد واختيار — وعم جسده الجذام ، ورائحة المسك توجد منه على مسافة بعيدة . قال الذي حدثني : رأيته يصلي على الماء ، ثم لقيت بعده محمدا الاسفنجي ، فاذا هو الأبرص ، فقلت له : يا سيدي ، كأن الله تعالى لم يجد للبلاء محلا من أعدائه حتى أنزله بكم ، وأنتم خاصة أوليائه ، قال : فقال لي : اسكت ، لا تقل ذلك ، إنه لما أشرفنا على خزائن العطاء — لم نجد عند الله شيئا أشرف ولا أقرب إليه من البلاء ، فسألناه إياه ، فكيف بك لو رأيت سيد الزهاد ، وقطب العباد ، وامام الأولياء الأوتاد — بغار في ارض « طرسوس » وجبالها — لحمه يتناثر ، وجلده يسيل قيحا وصديدا ، وقد أحاط به الذباب والنمل ، فإذا كان الليل لم يقنع بذكر الله ، وشكره على ما أعطاه من الرحمة ، وأسكن جسده من العافية ، حتى يشد نفسه بالحديد ويستقبل القبلة عامة ليله ، حتى يطلع الفجر أه . وسيأتي شيء من كلام المؤلف رحمه الله في هذا المعنى ، والتنبيه عليه ، والله ولي التوفيق .

تعقيب

أيها المريد : اذا فتح الله لك — وهو الفتاح العليم — جهة من جهات التعرف إليه ، كالأمراض والبلايا والفاقات — فانها سبب لمعرفة الله بصفاته : كاللطف والقهر والرحمة وغيرها — فلا تبال معها بقلّة عملك ، أى لا تهتم بقلّة الأعمال ، فان الله تعالى يقول في الحديث القدسي : « اذا ابتليت عبدي المؤمن ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده .. أبدلته لحماً خيراً من لحمه ، ودما خيراً من دمه ، فإذا أبرأته ، أبرأته ،

ولا ذنب له ، وان توفيته ، فأبلى رحمتي « رواه مالك في الموطأ » . عن عطاء بن يسار : عن أبي سعيد رضى الله عنه ، عنه صلوات الله عليه .

والمخاطب بذلك : هو المتيقظ بذكر الله عند نزول المصائب والنوازل — وليس الغافل الذى يسخط عند نزولها . ولا شك أن تلك المصائب والنوازل — قد تعوق عن العمل فيقل . فلا تبال بما يفوتك بها من الأعمال البدنية ، فانما هى وسيلة للأعمال القلبية . فطوب نفسا أيها المريد بما ينزل عليك من هذه التعريفات الجلالية والنوازل القهرية .

ويستفاد من ذلك : أن العمل القليل مع المعرفة خير من العمل الكثير بدونها .

الحكمة العاشرة

قال ابن عطاء الله :

« الأَعْمَالُ صُورٌ قَائِمَةٌ ، وَأَرْوَاحُهَا وَجُودٌ سِرُّ الإِخْلَاصِ فِيهَا^(١) »

قال ابن عباد :

إخلاص كل عبد في أعماله على حسب رتبته ومقامه ، فأما من كان منهم من الأبرار فمُنْتَهَى درجة إخلاصه أن تكون أعماله سالمة من الرياء الجلى والخفى ، وقصد موافقة أهواء النفس ، طلبا لما وعد الله تعالى به المخلصين من جزيل الثواب ، وحسن المآب ، وهربا عما أوعده به المخلطين من أليم العذاب ، وسوء الحساب ، وهذا من التحقق بمعنى قوله تعالى : « إياك نعبد »^(٢) — أى لا نعبد إلا إياك ، ولا نشرك في عبادتنا غيرك .

وحاصل أمره اخراج الخلق عن نظره في أعمال بره ، مع بقاء رؤيته لنفسه في النسبة إليها ، والاعتماد عليها . وأما من كان منهم من المقربين فقد جاوز هذا الى عدم رؤيته لنفسه في عمله ، فإخلاصه انما هو في شهود انفراد الحق تعالى بتحريكه وتسكينه ، من غير أن يرى لنفسه في ذلك حولا ولا قوة ، ويعبر عن هذا المقام بالصدق الذى به يصح مقام الإخلاص .

(١) الأعمال هنا : عبارة عن الحركة الجسمية أو القلبية .

الصور : جمع صورة ، وهو ما يتشخص في الذهن من الكيفيات . صور قائمة : أى أشباح وأشخاص لا أرواح فيها ، فلا تنفع بها .

الروح : السر المودع في الحيوانات ، وهو هنا : عبارة عما يقع به الكمال المعبر في الأعمال . والإخلاص : افراد القلب لعبادة الرب ، وسره : لبه ، وهو الصدق المعبر عنه بالتبرى من الحول والقوة .

(٢) من آية ٥ من سورة الفاتحة .

وصاحب هذا مسلك به سبيل التوحيد واليقين ، وهو من التحقق بمعنى قوله تعالى : ” وإياك نستعين^(١)“ ، أى لا نستعين إلا بك ، لا بأنفسنا وحولنا وقوتنا ، فعمل الأول هو العمل لله تعالى ، وعمل الثانى هو العمل بالله ، فالعمل لله يوجب المثوبة ، والعمل بالله يوجب القربة ، والعمل لله يوجب تحقيق العباداة ، والعمل بالله يوجب تصحيح الارادة ، والعمل لله نعت كل عابد ، والعمل بالله نعت كل قاصد ، والعمل لله قيام بأحكام الظواهر ، والعمل بالله قيام بالضمائر ، وهذه العبارات للامام أبى القاسم القشيرى^(٢) رضى الله عنه — وبهذا يتبين الفرق بين المقامين ، وتباينهما فى الشرف والجلالة ، فاخلاص كل عبد هو روح أعماله ، فوجود ذلك تكون حياتها وصلاحياتها للتقرب بها ، ويكون فيها أهلية وجود القبول لها ، وبعدم ذلك يكون موتها وسقوطها عن درجة الاعتبار ، وتكون إذ ذاك أشباحا بلا أرواح ، وضورا بلا معان .

قال بعض المشايخ : ” صحح عملك بالإخلاص ، وصحح إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة .

تعقيب

وخلاصة معنى الحكمة كما يقول ابن عجيبة فى إيقاظ الهمم : الأعمال كلها أشباح وأجساد ، وأرواحها وجود الاخلاص فيها ، وكما أنه لا قيام للأشباح إلا بالأرواح ، والا كانت ميتة ساقطة ، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها ، وإلا كانت صورا قائمة ، وأشباحا بخاوية لا عبرة بها . قال تعالى : ” وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء “ (من آية ٥ من سورة البينة) وقال تعالى : ” فاعبد الله مخلصا له الدين “ (من آية ٢ من سورة الزمر) .

(١) من آية ٥ من سورة الفاتحة .

(٢) القشيرى : هو الامام العالم الجامع بين الشريعة والحقيقة : ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى

٣٧٦ هـ — ٤٦٥ هـ بمدينة نيسابور (الرسالة القشيرية) .

والإخلاص على ثلاث درجات : درجة العوام ، والخواص ، وخواص
الخواص . فإخلاص العوام : هو إخراج الخلق من معاملة الحق ، مع طلب الحظوظ
الدنيوية والأخروية ، كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والخور ، وإخلاص
الخواص : طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية . وإخلاص خواص الخواص :
إخراج الحظوظ بالكلية ، فعبادتهم تحقيق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، أو محبة
وشوقا إلى رؤيته ، كما قال ابن القارض .

ليس سؤلى من الجنان نعيما غير انى أحبها لأراكا

وقال آخر : (وينسب الى رابعة العدوية)

كلهم يعبدون من خوف نارٍ ويرون النجاة حظا جزيلا

أو بأن يسكنوا الجنان فيضحوا فى رياض ويشربوا سلسيلا

ليس لى فى الجنان والنار حظ أنا لا أبتغى بحبى بديلا

الحكمة الحادية عشرة

قال ابن عطاء الله :

” اذْفِنْ وَجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخُمُولِ ، فَمَا تَبَتْ مِمَّا لَمْ يَدْفَنْ لَّا يَتِمُّ نِتَاجُهُ “

قال ابن عباد :

لاشئ أضر على المرید من الشهرة ، وانتشار الصيت ، لأن ذلك من أعظم حظوظه التي هو مأمور بتركها ، ومجاهدة النفس فيها ، وقد تسمح نفس المرید بترك ما سوى هذا من الحظوظ — ومحبة الجاه ، وإيثار الاشتهار ، مناقض للعبودية التي هو مطالب بها .

قال إبراهيم بن أدهم — رضى الله عنه —: ما صدق الله من أحب الشهرة ، وقال بعضهم طريقتنا هذه لا تصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابيل .
وقال أيوب السخيتاني — رضى الله عنه —: والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه .

وقال رجل لبشر بن الحارث — رضى الله عنه —: أوصنى فقال : اخمل ذكرك ، وأطب مطعمك . وقال بعضهم رضى الله عنه : ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح .
وقال أيضا : لا يجد حلاوة الآخرة من أحب أن يعرفه الناس .

الدفن : التغطية والستر .

المراد بالخمول : سقوط المنزلة عند الناس ، وعدم الشهرة ، يقال خمل الرجل خفى فلم يعرف ولم يذكر .
أرض الخمول : من إضافة المشبه به إلى المشبه . أى الخمول الذى هو كالارض للميت فى التغطية التامة .
النتاج : ثمرة الشئ ، ونتاج الشجرة : ثمرتها .

وقال الفضيل — رضى الله عنه — بلغنى أن الله عز وجل يقول فى بعض ما يمين به على عبده : ألم أنعم عليك ؟ ألم أسترک ؟ ألم أحمل ذکرك ؟

ثم إن تلك الأشياء الراجعة إلى محبة الاشتهار والاستعلاء مما يقدر فى إخلاص العبد على اختلاف مراتبه ، لأنه إما بسقوط الناس عن النظر إليهم ، أو بسقوط النفس عن النظر إليها ، ولا يثبت للمريد جميع ذلك إلا بالحمول ، وسقوط المنزلة عند نفسه ، وعند الناس ؛ لأنه إن لم يكن بهذه المثابة لم ينفك عن الأغراض التى تبعته على استمالة قلوب الخلق ، لما يرى لنفسه عليهم من الحق ، فتدعوه نفسه إلى ذلك دعاء خفيا ، فينصبغ عمله بالرياء انصباغا ، ولا يتفطن له ، كما سيأتى عند قوله : ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق إليك .

وبقدر تحققك بوصف الحمول يتحقق لك مقام الإخلاص ، حتى تتخلص بذلك من رؤية إخلاصك ، وبهذا يتبين لك إفلاس جميع الناس ، إلا من رحم الله تعالى ، وأن الإخلاص فى غاية الصعوبة على النفس ، وأنه أعز الأشياء فى الوجود . وقيل لسهل بن عبد الله — رضى الله عنه — أى شئ أشد على النفس ؟ قال : الإخلاص ، لأنها ليس لها فيه نصيب .

وقال يوسف بن الحسين — رضى الله عنه — أعز شئ فى الدنيا الإخلاص وكم اجتهد فى إسقاط الرياء عن قلبى ، فكأنه ينبت فيه على لون آخر . قال الشيخ أبو طالب المكي — رضى الله عنه — : والإخلاص عند المخلصين — إخراج الخلق عن معاملة الخالق ، وأول الخلق النفس ، والإخلاص عند المحبين — ألا يعمل عملا لأجل النفس ، وإلا دخل عليه مطالعة العوض ، أو تشوف إلى حض طبع ، والإخلاص عند الموحدين — خروج الخلق من النظر إليهم فى الأفعال ، وترك السكون والاستراحة بهم فى الأحوال أ هـ .

فإذا أحمل العبد نفسه ، وألزمها التواضع والمذلة ، واستمر على ذلك ، حتى صار له خلقا وجبلة ، بحيث لا يجد لضعته ألما ، ولا لمذلتها طعما ، فحينئذ تنزكى نفسه : ويستنير بنور الإخلاص قلبه ، وينال من ربه أعلى درجات الخصوصية ، ويحصل على أو فى نصيب من المحبة الحقيقية .

قال الشيخ أبو طالب : ومتى ذل في نفسه ، واتضع عند نفسه ، فلم يجد لذته طعاما ، ولا لضعته حسا ، فقد صار الذل والتواضع كونه ، فهذا لا يكره الذم من الخلق ؛ لوجود النقص في نفسه ، ولا يجب المدح منهم ؛ لفقد القدر والمنزلة في نفسه ، فصارت الذلة والضعة صفة له (١) ، لا تفارقه ، لازمة لزوم الزبالة للزبال ، والكساحة للكساح ، وهما صنعتان له كسائر الصنائع ، وربما فخرؤا بهما ، إعدم النظر الى نقصهما ، فهذه ولاية عظيمة له من ربه ، قد ولاه على نفسه ، وملكه عليها فقهرها بعزه ، وهذا مقام محمود محبوب ، وبعده مقام المكاشفات بأسرار الغيوب . ثم قال : ومن كان حاله مع الله تعالى الذل — طلبه واستحلاه ، كما يطلب المستكبر العز ويستحليه اذا وجده ، فان فارق ذلك الذل ساعة — تغير قلبه ، لفراق حاله ، كما أن المتعزز اذا فارق العز ساعة — تكدر عيشه ، لأن ذلك حياة نفسه أه . فإذن لا بد للمريد من اسقاط جاهه ، وإخمال ذكره ، وفراره عن مواضع اشتهاره ، وتعاطيه أمورا مباحية ، تسقطه من أعين الناس ، كقصبة السائح الذى سمع به ملك زمانه فجاء اليه ، فلما علم بذلك السائح — استدعى بطلا ، وجعل يأكله أكلا عنيفا ، بمراى من الملك ، فلما رآه على تلك الحالة — استحقره ، واستصغره ، وانصرف عنه ، ذامًا له . وسيأتى نص هذه القصة بعد هذا عند قوله : ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق اليك .

وقد بالغ أئمة الصوفية — رضى الله عنهم — فى مداواة علة الجاه الذى علق بالقلوب ، حتى استعملوا فى ذلك أشياء منكورة فى ظاهر الشرع ، ورأوا ذلك جائزا لهم أن يفعلوه ويأمرؤا به ، وذلك مثل قصة الرجل الذى دخل الحمام ، ولبس من فاخر ثياب الناس تحت ثيابه ، بحيث تظهر ، ومشى بذلك متحيرا ، بحيث يرى ويُظن به السرقة ، فلما رآه الناس أخذوه وصفعوه ، ونزعوا الثياب عنه ، واشتهر عندهم بالسرقة ؛ حتى كان يعرف عندهم بلص الحمام ، فحينئذ وجد قلبه .

(١) يلاحظ أن هذا منهج خاص ببعض طبقات الصوفية ، أى : أنه حالة خاصة لا يطلبها الشرع من أتباعه ، ولا يلزمهم بها ، بل وقد يأمر بعكسها حين يوصى باتقاء الشبهات : من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، وهو ما يتناقض مع ما يدعو اليه الشارح من التظاهر بالوضاعة حتى تذل النفس ، وهى على أية حال طريقة خاصة جدا ببعض من مضوا على هذا المنهج . (المراجع)

ومثله ما يروى عن أبى يزيد — رضى الله عنه — فى قصة الشاهد الذى امره
بخلق رأسه ولحيته ، وتعليق مخلاة الجوز فى عنقه ، واعطائه لمن يصفعه من الصبيان ،
وطوافه على تلك الحالة فى المحافل والمحاضر ، والحكايتان مشهورتان : ذكرهما الامام
الغزالى — رضى الله عنه — وغيره .

وقال بعض المصنفين : وإذا جاز لمن غص بلقمة من طعام حلال أن يسيغها
بجرعة من الخمر اذا لم يجد غيره ، مع أن تحريمه مقطوع به ، ولا يفوته الا حياة
فانية ؛ فلأن يجوز ، مثل هذا اذا تعين أولى ؛ إذ يفوته بذلك الحياة الباقية ، والقرب
من الله تعالى .

فاذا التزم العبد هذه الطرق من الرياضات — ماتت نفسه — وحيى قلبه ،
وقرب من حضرة ربه ، واجتنى ثمرة غرسه ، على غاية الكمال والتمام .

وتلك الثمرة اخلاق الايمان التى تكيفت بها نفسه . وصارت كصفات ذاتية
له . وهى نتيجة الحكمة التى أنبتها الله فى قلوب عباده المتواضعين ” ومن يؤت
الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا “ (من آية ٢٦٩ من سورة البقرة)

قال عيسى عليه الصلاة والسلام لأصحابه : أين تنبت الحبة ؟ قالوا : فى
الارض ، فقال عليه الصلاة والسلام : كذلك الحكمة لا تنبت الا فى القلب مثل
الأرض .

قلت : وقد ورد عن النبى ﷺ فى مدح الخمول ، وذم الشهرة — أحاديث
كثيرة : منها ما روى أبو أمامة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ — أنه قال :
” يقول الله عز وجل : إن اغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ “ ذو حظ من
الصلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه فى السر ، وكان غامضا فى الناس لا يشار اليه
بالأصابع ، وكان رزقه كفافا ، فصبر على ذلك ، ثم نفى يده ، فقال : ” عجلت
مينته ، قلت بواكيه ، قل عزأؤه “ .

وفى حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ —

(١) خفيف الحاذ : خفيف الظهر ، والمراد : خفيف الحال ، غير متكبر من الدنيا .

” رب أشعث^(١) أغبر^(٢) ذى طمرين^(٣) ، تنبو عنه أعين الناس — لو أقسم على الله لأبره “ . وروى معاذ بن جبل — رضى الله عنه — عن رسول الله ﷺ — أنه قال : ” إن يسيرا من الرياء شرك ، وإن من عادى أولياء الله — فقد بارز الله بالمحاربة ، وإن الله يحب الاتقياء الاخفياء الذين اذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يدعوا ، ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة “ وروى أبو هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله ﷺ — فى حديثه الذى نوه فيه باسم « أويس القرنى » وأشاد بذكره ، ونبه على عظيم أمره — رضى الله عنه — أنه قال : « بينما نحن عند رسول الله ﷺ — فى حلقة من أصحابه إذ قال : « ليصلين معكم غدا رجل من أهل الجنة » ، قال أبو هريرة فطمعت أن أكون ذلك الرجل ، فغدوت فصليت خلف النبى ﷺ ، فأقمت فى المسجد حتى انصرف الناس ، فبقيت أنا وهو ﷺ ، فبينما نحن كذلك إذ أقبل رجل أسود ، متزر بحرقه ، مرتد بهرقه ، فجاء حتى وضع يده فى يد رسول الله ﷺ — ثم قال : يا نبى الله ، ادع الله لى بالشهادة ، فدعا ﷺ له بالشهادة ، وأنا لنجد منه ريح المسك الأذفر ، فقلت يارسول الله ، أهو هو ؟ قال نعم ، إنه لمملوك بنى فلان ، قلت : أفلا تشتريه ، فتنقته ، يا نبى الله ؟ فقال : وأنى لى بذلك ؟ إن كان الله يريد أن يجعله من ملوك الجنة يا أبا هريرة . إن لأهل الجنة ملوكا وسادة ، وأن هذا الأسود أصبح من ملوك الجنة وساداتهم يا أبا هريرة . إن الله عز وجل يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشعثة رعوسهم ، المغبرة وجوههم ، الخمصة بطونهم من كسب الحلال ، الذين اذا استأذنوا على الأمراء — لم يؤذن لهم ، وإن خطبوا المتنعمات لم ينكحوا ، وإن غابوا — لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يدعوا ، وإن طلّعوا — لم يفرح بطلعتهم ، وإن مرضوا — لم يعادوا ، وإن ماتوا لم يشهدوا . قالوا يا رسول الله ، كيف لنا برجل منهم ؟

قال ذلك « أويس القرنى » قالوا : وما أويس القرنى ؟

-
- (١) اشعث : شعث بدنه : اتسخ ، فهو أشعث ، وهى شعناء (ج) شعث .
 (٢) غبر الشيء ، صار لونه كلون الغبار ، فهو أغبر ، وهى غبراء (ج) غبر .
 (٣) الطمر : الثوب البالى .

قال : أشهل^(١) ذو صهوبة^(٢) ، بعيد ما بين المنكبين ، معتدل القامة ، آدم شديد الأدمة ضارب بذقنه الى صدره ، رام بنظره الى موضع سجوده ، واضح يمينه على شماله ، يتلو القرآن ، ييكى على نفسه ، ذو طمرين ، لا يؤبه له ، متزر ازار صوف ، ورداء صوف مجهول في أهل الأرض ، معروف في أهل السماء ، لو أقسم على الله لأبر قسمه ، ألا وان تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء ، ألا وانه اذا كان يوم القيامة قيل للعباد : ادخلوا الجنة ويقال « لأويس القرني » قف فاشفع ، فيشفعه الله في مثل عدد ربعة ومضر ، ياعمر ياعلى اذا انتما لقيتاه ، فاطلبا اليه : يستغفر لكما ، يغفر الله لكما ، وذكر باق الحديث . وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال : « يكون في أمتي رجل يقال له « أويس القرني » يدخل في شفاعته عدد ربعة ومضر ، لو أقسم على الله لأبره ، فمن لقيه بعدى ، فليقرئه منى السلام ، ثم سئل عن علامته ؟ فقال هو رجل أصهب أشهل ذو طمرين أبيضين ، له أم ، وقد كان به بياض ، فدعا الله عز وجل ، فأذهب عنه ، الا مقدار الدينار أو الدرهم ، لا يؤبه له ، مجهول في الأرض ، معروف في السماء .

وكان قد بلغ من شدة خموله ، ونهاية ضعفه — أن الناس كانوا يسخرون منه ، ويستهزئون به ، ويؤذونه ، ويرون فيه أهلية الخداع والتلصص ، وينسبون له ذلك . فقد روى في ذلك أنه دفع اليه بعض فقهاء الكوفة — ثوبين — وكان يجالسه ، فانقطع عن مجلسه ، لأجل العرى ، فردهما عليه بعد أن أخذهما منه ، وقال : ان الناس يقولون : من أين له هذان الثوبان ؟ ترى من خدع عليهما ؟ وكان في ذلك الوقت يجالس الفقهاء ، ويظهر للناس ، وذلك قبل أن يعرف برفعة القدر ، وجلالة الخطر ، وتنويه عمر ، رضى الله عنه — به على المنبر . فلما رأى أن الناس عرفوا حاله — هرب عنهم ، واستخفى منهم ولبس أمره عليهم برعاية الابل وغير ذلك . وقيل لعمر — رضى الله عنه — لما سأل عنه قومه ، ما فينا أخمل منه ذكرا ،

(١) أشهل : الشهلة : أن يشوب انسان العين حمرة .

(٢) الأصهب : ذو اللون الأصفر الضارب الى شيء من الحمرة والبياض .

فلما لقيه هو وعلى — رضى الله عنهما — وسأله من هو ؟ فقال له : راعى غنم ، وأجير قوم ، وستر ذكر « أويس » فلما سأله عن اسمه ؟

قال له عبد الله : فلما سأله عن اسمه الذى سمته به أمه ، امتنع أن يجيبه عن ذلك ، فلما أخبراه بوصف النبى ﷺ — له ، وانهما عرفاه بذلك ، قال لهما : عسى أن يكون ذلك غيرى . فلما قال له : أخبرنا رسول الله — ﷺ — أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء ، وطلبا منه أن يوضحها لهما ، لم يجد بدا من أن يوضحها لهما ، وذلك — والله اعلم — ليريحهما رؤية عين صحة قول رسول الله ﷺ وصدقه فى اخباره بالغيب ، وذلك أمر واجب عليه ، والا فلعله كان يتعلل لهما كما فعله فى كل ما سئل عنه .

ثم بعد ذلك ، لما سأله عمر — رضى الله عنه — أن يلتقى معه ، ويجعل ذلك الموضع ميعادا بينه وبينه ، قال له : يا أمير المؤمنين : لا ميعاد بينى وبينك ، ولا أعرفك ، ولا تعرفنى بعد اليوم ، ثم دفع الابل الى أصحابها ، ونخلا عن الرعاية ، وكذلك فعل مع هرم بن حيان — رضى الله عنه — لما لقيه بشاطئ الفرات ، ووقع بينهما التعرف ، قال له : « حدثنى بحديث عن رسول الله — ﷺ — « أحفظه عنك ، فقال له لا أحب أن أفتح هذا الباب على نفسى ، لا أحب أن أكون محدثا ، ولا مفتيا ولا قاضيا ، فلما فرغا من الكلام الذى كانا بصددده ، سأله مداومة الاجتماع به ، فأبى وامتنع ، وقال له : لا أراك بعد اليوم تطلبنى ، ولا تسأل عنى ، انطلق أنت ها هنا ، حتى أنطلق أنا ها هنا . ثم بعد ذلك ، اجتهد فى طلبه ، والبحث عنه ، فلم يقع له على خبر . ومن عجيب أمره أن حقق الله تعالى له هذا الحال من التخفى والتستر ، وأتمه له بعد موته مع ما أظهره بسببه من الآيات والعبر ، حيث قال عبد الله بن سلمة : غزونا أذربيجان زمن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ومعنا « أويس القرنى » رضى الله عنه ، فلما رجعنا مرض فمات ، فنزلنا ، فاذا قبر محفور ، وماء مسكوب ، وحنوط ، فغسلناه ، وكفناه وصلينا عليه ، ودفناه ، فقال بعضنا لبعض لورجعنا ، فعلمنا قبره ، فرجعنا ، فاذا لا قبر ولا أثر . قلت والحكايات والآثار فى مدح الخمول ، وذم الاشتهار أكثر من أن يأقى عليها انحصار وقد أورد كثيرا منها ، الأئمة المصنفون فى هذا العلم ، فليطالع ذلك المريد

مستمدا من الله تعالى أحسن التوفيق، والتأييد ، وتعبير المؤلف رحمه الله ها هنا :
بالدفن والارض والنبات والتاج من ملح الاستعارات .

تعقيب

ادفن وجودك فى الخمول الذى هو كالأرض للميت فى التغطية التامة ،
ولا تتعاط أسباب الشهرة ، فان الخمول مما يعين على الاخلاص ، بخلاف حب
الظهور فانه من جملة القواطع القاصمة للظهور ، فان سلكت الطريق بعد شهرتك —
فالواجب عليك التواضع ، فلا شئ أضر على المرید من الشهرة ، وانتشار الصيت .
ومحبة الجاه واىثار الاشتهار — مناقض للعبودية التى يطالب بها المرید .
قال الشيخ أبو العباس المرسى — رضى الله عنه — من أحب الظهور فهو عبد
الظهور ، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ، ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره
أو أخفاه .

ومن ثم قال رجل لبشر بن الحارث — رضى الله عنه — أوصنى .
قال : أنحمل ذكرك ، وأطب مطعمك .

استاذك أبى سليمان ، فقال : يا احمد ، قل سبحان الله بلا عجب ، فقال ابن حنبل : سبحان الله وطولها بلا عجب ، فقال ابن أبى الحوارى ، سمعت أبا سليمان يقول : اذا عقدت النفوس على ترك الآثام — جالت فى الملكوت ، وعادت الى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى اليها عالم علما . قال : فقام أحمد بن حنبل ثلاثا ، وجلس ثلاثا وقال : ما سمعت فى الاسلام بحكاية أعجب التى من هذه ، ثم ذكر الحديث الذى ذكرناه : «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم» .

ثم قال لأحمد بن الحوارى : صدقت يا أحمد ، وصدق شيخك . ولأجل كون هذه الأشياء أضدادا — عجب المؤلف رحمه الله تعالى ممن يعتقد صحة اجتماعها ، ومن طمع فى نيل مراتب الرجال ، مع كونه على أقبح الخلال .

تعقيب

ينفى ابن عطاء الله اجتماع الضدين ، ويتعجب من ذلك ، فكيف يشرق قلب صور الأكوان ثابتة فى بصيرته ؟ وذلك باعتقاده أنها تضر وتنفع ، وتطلعه لها ، وتعلقه بها ؛ فإن اشراق القلب بنور الايمان مضاد للظلمة التى استولت عليه بالركون الى الاغيار ، فكيف يجتمع نور وظلمة فى قلب ، وهما ضدان ؟ وكيف يرحل قلب الى الله وهو مقيد بشهواته ؟ فالمقيد لا يمكنه السير ، فهما ضدان ، وكيف يطمع قلب أن يدخل حضرة الله ، ودائرة ولايته — وهى مقتضية الطهارة — وهو لم يتطهر من غفلاته الشبيهة بالجناية ؟ فدخول الحضرة مضاد لما هو عليه من جنابة الغفلات .

وكيف يرجو قلب أن يفهم دقائق الأسرار — المتوقفة على التحرر من المعاصى — وهو لم يرجع عن معاصيه ؟ ففهم دقائق الأسرار — لا يكون أبدا مع الإصرار . كما قال الله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

والاستفهام — فى هذه المواطن الأربعة — إنكارى للنفى أو التعجب .

وكل واحد منها وسيلة لما بعده ؛ فإشراق القلب وسيلة لدخول دائرة الولاية ، وهذه وسيلة للاطلاع على دقائق الأسرار .

استاذك أبى سليمان ، فقال : يا احمد ، قل سبحان الله بلا عجب ، فقال ابن حنبل : سبحان الله وطولها بلا عجب ، فقال ابن أبى الحوارى ، سمعت أبا سليمان يقول : اذا عقدت النفوس على ترك الآثام — جالت فى الملكوت ، وعادت الى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى اليها عالم علما . قال : فقام أحمد بن حنبل ثلاثا ، وجلس ثلاثا وقال : ما سمعت فى الاسلام بحكاية أعجب التى من هذه ، ثم ذكر الحديث الذى ذكرناه : «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم» .

ثم قال لأحمد بن الحوارى : صدقت يا أحمد ، وصدق شيخك . ولأجل كون هذه الأشياء أضدادا — عجب المؤلف رحمه الله تعالى ممن يعتقد صحة اجتماعها ، ومن طمع فى نيل مراتب الرجال ، مع كونه على أقبح الخلال .

تعقيب

ينفى ابن عطاء الله اجتماع الضدين ، ويتعجب من ذلك ، فكيف يشرق قلب صور الأكوان ثابتة فى بصيرته ؟ وذلك باعتقاده أنها تضر وتنفع ، وتطلعه لها ، وتعلقه بها ؛ فإن اشراق القلب بنور الايمان مضاد للظلمة التى استولت عليه بالركون الى الاغيار ، فكيف يجتمع نور وظلمة فى قلب ، وهما ضدان ؟ وكيف يرحل قلب الى الله وهو مقيد بشهواته ؟ فالمقيد لا يمكنه السير ، فهما ضدان ، وكيف يطمع قلب أن يدخل حضرة الله ، ودائرة ولايته — وهى مقتضية الطهارة — وهو لم يتطهر من غفلاته الشبيهة بالجناية ؟ فدخول الحضرة مضاد لما هو عليه من جنابة الغفلات .

وكيف يرجو قلب أن يفهم دقائق الأسرار — المتوقفة على التحرر من المعاصى — وهو لم يرجع عن معاصيه ؟ ففهم دقائق الأسرار — لا يكون أبدا مع الإصرار . كما قال الله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

والاستفهام — فى هذه المواطن الأربعة — إنكارى للنفى أو التعجب .

وكل واحد منها وسيلة لما بعده ؛ فإشراق القلب وسيلة لدخول دائرة الولاية ، وهذه وسيلة للاطلاع على دقائق الأسرار .

الحكمة الرابعة عشرة

قال ابن عطاء الله :

« الْكَوْنُ ^(١) كُلُّهُ ظِلْمَةٌ ^(٢) ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ^(٣) ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ ^(٤) ، فَمَنْ رَأَى الْكَوْنَ — وَلَمْ يَشْهَدْ فِيهِ أَوْعِنْدَهُ ، أَوْ قَبْلَهُ ، أَوْ بَعْدَهُ — فَقَدْ أَعْوَزَهُ ^(٥) وَجُودُ الْأَنْوَارِ ، وَحُجِبَتْ ^(٦) عَنْهُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ ^(٧) بِسُحْبِ الْأَثَارِ ^(٨) . »

قال ابن عباد :

العدم ظلمة ، والوجود نور ، فالكون بالنظر الى ذاته عدم مظلم ، وباعتبار تجلي نور الحق عليه ، وظهوره فيه ، وجود مستنير ، ثم اختلفت أحوال الناس ههنا ، فمنهم من لم يشاهد إلا الأكوان ، وحجب بذلك عن رؤية المكون ، فهذا تائه في الظلمات محجوب بسحب آثار الكائنات ، ومنهم من لم يحجب بالأكوان عن المكون ، ثم هم في مشاهدتهم إياه فرق : فمنهم من شاهد المكون قبل الأكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثر على الآثار ، ومنهم من شاهده بعد الأكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالآثار على المؤثر ، ومنهم من شاهد مع الأكوان ، والمعية

(١) الكون : ما كونه القدرة ، وأظهرته للعيان

(٢) الظلمة : ضد النور ، وهى عدمية ، والنور وجودى

(٣) أناره : أوجده ، وصيره نورا .

(٤) ظهور الحق فيه : أى ظهوره عز وجل ، وتجليه ، بمعنى أنه تجلى عليه بذاته ، وقال له : كن فكان .

لم يشهده فيه : أى احجبه ما فى الكون عن المكون وهو الله سبحانه وتعالى .

(٥) أعوزه : فاتته . وجود الأنوار : أى الأنوار الالهية التى يدرك بها مشاهدة الله على وجه ما .

(٦) حجبت : غابت .

(٧) شمس المعارف : المعارف التى كالشمس . من اضافة المشبه به الى المشبه .

(٨) بسحب الآثار : أى بالآثار وهى المكونات التى كالسحب . من اضافة المشبه به الى المشبه .

ههنا ، إما معية اتصال ، وهو شهوده فى الاكوان ، وإما معية انفصال ، وهو شهوده عند الأكوان . وهذه الظروف المذكورة ليست بزمانية ولا مكانية ، لأن الزمان والمكان من جملة الأكوان ، والاتصال والانفصال المذكوران ليسا على ما يفهم من معانيهما ، فانهما أيضا من جملة الأكوان ، ومعرفة تفصيل هذه الأمور ، والفرقة بين هذه الحقائق على ما هى عليه — موكول الى أربابه ، فلنقتصر على ما ذكرناه ، فههنا زلت أقدام كثير من الناس ، فتكلموا بكلمات موهمة ، وعبروا بعبارات منكرة فى الشرع ، فكفروا بذلك ، وبدعوا ، فاعتقد كمال التنزيه ، وبطلان التشبيه . وتمسك بقوله عز وجل « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير »^(١) « سبحانه لا إله غيره »^(٢) .

(١) من آية ١١ من سورة الشورى

(٢) سبق تفصيل قضايا التنزيه ، والتجسيد ، والتشبيه .

الحكمة السادسة عشر

قال ابن عطاء الله :

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ الَّذِي ، ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ الظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَلَوْلَاهُ مَا كَانَ وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ ؟
يَا عَجَبًا ! كَيْفَ يَظْهَرُ الْوُجُودُ فِي الْعَدَمِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ الْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ
وَصْفُ الْقَدَمِ ؟

قال ابن عباد :

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذي أظهر كل شيء » بما أشرف عليه
من نور الوجود ، وقد كان في ظلمة العدم كما تقدم .
« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذي ظهر بكل شيء ، حتى استدل
عليه المستدلون بالأشياء ، كما قال تعالى : « سنبريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .
« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذي ظهر في كل شيء » اذ هو المتجلى
فيها بمحاسن صفاته وأسمائه .

« كيف يتصور أن يحجبه شيء » وهو الذى ظهر لكل شيء « فى طور ذلك الشيء ، ولذلك كان ساجدا له ، ومسبحا بحمده ، ولكن لا نفقه ذلك .
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الظاهر قبل كل شيء لتحقيق هذا الاسم له أزلا وأبدا .

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أظهر من كل شيء لأن الوجود أظهر من العدم على كل حال .

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الواحد الذى ليس معه شيء إذ كل ما سواه عدم ، لا وجود له على التحقيق .

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أقرب اليك من كل شيء لثبوت احاطته بك ووجود قيومته عليك .

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، ولولاه ما كان وجود كل شيء ؛ حتى استدل به الشاهدون على الأشياء ، كما قال الله تعالى : « أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »^(١) يا عجباً كيف يظهر الوجود فى العدم ؛ لأن العدم ظلمة والوجود نور ، وهما ضدان لا يجتمعان .

أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم ؛ لأن الباطل لا يثبت مع ظهور الحق ، كما قال الله تعالى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »^(٢) .

وقال عز من قائل « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق »^(٣) .
قلت : وهذا الفصل من قوله : الكون كله ظلمه الى هنا أبدع فيه المؤلف غاية الابداع ، وأتى فيه بما تقربه الأعين ، وتلذ به الأسماع ، فإنه رضى الله عنه ذكر جميع متعلقات الظهور ، وأبطل حجابية كل ظلام ونور ، وأراك فيه الحق رؤية عيان وبرهان ، ورفعك من مقام الايمان الى أعلى مراتب الاحسان . كل ذلك فى أوجز

(١) من آية ٥٣ من سورة الشورى .

(٢) آية ٨١ من سورة الإسراء .

(٣) من آية ١٨ من سورة الأنبياء .

لفظ ، وأفصح عبارة ، وأتم تصريح ، وألطف إشارة . فلو لم يكن في هذا الكتاب
الا هذا الفصل لكان كافيا شافيا ، فجزاه الله عنا خيرا .

تعقيب

تضمنت هذه الحكمة عددا من الأدلة استدل بها ابن عطاء الله على أنه سبحانه
وتعالى — لا يحتجب بالأكوان ، وأتى بها على سبيل التعجب ، واستبعاد أن يتصور
ذلك في الأذهان ، فقد استدل على بطلان الحجاب في حقه تعالى بعشرة أدلة ، متعجبا
من كل واحد منها ، لظهوره مع خفائه ، أى لشدة ظهوره عند العارفين ، ولشدة
خفائه عند الغافلين ؛ حتى قال ابن عباد : هذا الفصل من قوله « الكون كله ظلمة »
إلى هنا — أبدع فيه المؤلف غاية الإبداع ، وأتى فيه بما تقر به الأعين ، وتلد به
الأسماع .

... الى أن قال : فلو لم يكن في هذا الكتاب الا هذا الفصل — لكان كافيا
شافيا . فجزاه الله عنا خيرا .

الحكمة السابعة عشرة

قال ابن عطاء الله :

« مَا تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ^(١) شَيْئاً مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَ فِي الْوَقْتِ غَيْرَ مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ فِيهِ »

قال ابن عباد :

إذا أقام الله تعالى العبد في حال من الأحوال التي لا يذمها الشرع — فليلتزم حسن الأدب في اختيار بقائه عليها ، ورضاه بها ، وليراقب الله تعالى في مراعاة آدابها . . . وليوافق مراد الله تعالى في ذلك ، حتى يكون هو الذي ينقله عنها . قال أبو عثمان — رضى الله تعالى عنه — منذ أربعين سنة ، ما أقامنى الله في حال ، فكرهته ولا نقلنى الى غيره ، فسخطته . وقد تقدم حكاية المؤلف رحمه الله تعالى — مع شيخه أبى العباس المرسى حين عزم على التجرد ، وترك ما كان عليه من الاشتغال بالعلم الظاهر ، وما أجابه به الشيخ رضى الله تعالى عنه ، وهذا من نتائج العلم بالله تعالى ومعرفة ربوبيته ، فَإِنْ سَخِطَ تِلْكَ الْحَالُ ، وتشوف الى الانتقال عنها بنفسه — وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله تعالى — فقد بلغ غاية الجهل بربه ، وأساء الأدب في حضرة مولاه عز وجل وهذا من معارضة حكم الوقت الذى تشير اليه الصوفية ، وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة .

(١) الجهل : ضد العلم ، وقيل هو عدم العلم بالمقصود ، وهو على قسمين : بسيط ومركب ، فالبسيط أن يجهل ويعلم أنه جاهل ، والمركب أن يجهل جهله وأقبح الجهل — الجهل بالله وإنكاره بعد طلب معرفته .

والوقت هنا : الزمان الذى لا يقبل غير ما أظهره الله فيه .

فالواجب على العبد الاستسلام لحكم الله تعالى في ذلك الوقت ، فهو أدب العبودية ، ومقتضى العلم بالله تعالى ، وهذا هو أحد معانى لفظ الوقت في اصطلاحهم^(١) قال الامام أبو القاسم القشيري — رضى الله تعالى عنه — وقد يريدون بالوقت ما يصادفهم من تصرف الحق لهم دون ما يختارون لأنفسهم ، ويقولون : فلان بحكم الوقت ، أى أنه مستسلم لما يبدو من الغيب من اختيار ، وهذا فيما ليس لله عز وجل عليهم فيه أمر أو اقتضاء بحق شرع ، اذ التضيق لما أمرت به ، واحالة الأمر فيه على التقدير ، وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير — خروج عن الدين . ومن كلامهم : الوقت سيف : أى كما أن السيف قاطع — فالوقت بما يقتضيه الحق ، ويجريه غالب .

وقيل : السيف لين* مسه ، قاطع حده ، فمن لاينه سلم ، ومن خاشنه اصطلم^(٢) ، وكذلك الوقت : من استسلم لحكمه نجا ، ومن عارضه بترك الرضا — انتكس وتردى ، وأنشدوا :

وكالسيف إن لاينته لان مسه وحده أن خاشنته خشنان
ومن ساعده الوقت ، فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت ، فالوقت عليه
مقت ، هذا كلام ابى القاسم ، وهو موافق لما ذكره صاحب الكتاب ، والله الموفق .

تعقيب

من آداب العارف الحقيقى : أن يقر الأشياء في محلها ، ويسير معها على سيرها ، فلا ينكر شيئا ، ولا يجهل شيئا ، ولذا قال بعض العارفين :
« ليس في الامكان أبدع مما كان » أى أن ما سبق في علم الله لا بد أن يكون ، ولا يكون غيره ، فليس هناك أبدع منه .

(١) قد يريدون بالوقت غير هذا ، مثل : طيبة القلب ، ومنه قولهم : فلان صاحب وقته ، وطالب لوقته ، ومثل الاجتماع للسمع ، ومنه قولهم : صنع فلان وقتا ، وحضرنا وقتا .
(٢) اصطلم : المراد : انقطع .

و ترشد هذه الحكمة : إلى أن من حسن الأدب أن يكون المرید راضيا بما أقامه الله فيه ، فان سخط من الحالة التي يكون عليها ، وتشوف إلى الانتقال عنها ، وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله — فقد بلغ غاية الجهل ، وأساء الأدب . وإنما كانت معاندة الوقت غاية الجهل ؛ لا نسداد أبواب العلم ، وطرقه في حق صاحب هذه الحالة .

وفي بعض الأخبار : يقول الله تبارك وتعالى « من لم يرض بقضائي ، ولم يصبر على بلائي ؛ فليخرج من تحت سماي ، وليتخذ ربا سواي » .

الحكمة الثامنة عشرة

قال ابن عطاء الله :

« إِحَاثُكَ^(١) الْأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ^(٢) مِنْ رُعُونَاتِ^(٣) النَّفْسِ »

قال ابن عباد :

إذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال دنياه ، وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة ، وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشغال ، وقال : إذا تفرغت عملت ، فذلك من رعونة نفسه ، والرعونة : ضرب من الحماقة وحماقته من وجوه : الأول : إثارة الدنيا على الآخرة ، وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين ، وهو خلاف ما طلب منه ، قال الله تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى »^(٤) .

والثاني : تسويفه بالعمل الى أوان فراغه ، وقد لا يجد مهلة ، بل يختطفه الموت قبل ذلك ، أو يزداد شغله ؛ لأن اشغال الدنيا يتداعى بعضها الى بعض ، كما قيل : فما قضى أحد منها لبانتته^(٥) ولا انتهى أرب إلا إلى أرب^(٦)

(١) الإحالة على الشيء : هو تسليطه واغراؤه عليه ، والمراد هنا : توقف الامر عليه ، بحيث لا يتوجه له حتى يتيسر وجوده .

(٢) الفراغ من الشيء : خلوه منه ، وفراغ القلب : خلوه مما يشغله ، وفراغ الجوارح : خلوها من الأشغال .

(٣) الرعونات : جمع رعونة ، وهى ضرب من الحماقة ، فيظن بصاحبها العقل ، وليس بعاقل فى نفس الأمر .

(٤) الآيتان : ١٦ ١٧ من سورة الأعلى .

(٥) اللبانة : الحاجة .

(٦) الأرب : البغية والأمنية . وفى معنى هذا البيت يقول الشاعر الآخر :

نروح ونغدو لحاجتنا
وحاجات من عاش لاتنقضى

والثالث : أن يفرغ منها إلى الذى لا يرضيه من تبدل عزمه ، وضعف نيته ، ثم فيه من دعوى الاستقلال ورؤية الحول والقوة فى جميع الأحوال ما يستحققر فى جنبه جميع هذا ، بل الواجب عليه أن يبادر الى الأعمال على أى حال كان ، وأن ينتهز فرصة الامكان قبل مفاجأة الموت ، وحلول الفوت ، وأن يتوكل على الله تعالى فى تيسيرها عليه ، وصرف الموانع الحائلة بينها وبينه .

وما أحسن قول ابن الفارض فى هذا المعنى

وعد من قريب فاستجب واجتنب غدا وشمر عن الساق اجتهدا بنهضة
وكن صارما كالوقت فالوقت فى عسى وإياك على فهى أخطر علة
وسر زما وانفض كسيرا فحظك الب سطالة ما أخرت عزما لصحة
وَجُدَّ بسيف العزم سوف فان تجد نفسا فالنفس إن جُدَّتْ جُدَّتْ

تعقيب

الواجب على المرء أن يبادر الى الأعمال الصالحة التى توصله الى مولاه ، قبل فوات الأوان ؛ ولذلك قيل : « الوقت كالسيف ، ان لم تقطعه قطعك » فعلى العاقل المؤمن أن ينتهز فرصة عمل الطاعات ، وأن يتوكل على الله ؛ كى ييسرها له ، ويصرف عنه الموانع التى تحول بينها وبينه .

قال (ﷺ) « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى »

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ما من يوم إلا وهو ينادى : يا بن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فاغتنم منى ، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » .

الحكمة التاسعة عشرة

قال ابن عطاء الله :

« لَا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ^(١) ، لِيَسْتَعْمَلَكَ فِيهَا سِوَاهَا^(٢) ؛ فَلَوْ أَرَادَكَ^(٣) لَأَسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ »

قال ابن عباد :

كما أنه اذا كان المرء على حالة لا توافق غرضه ، كانت متعلقة بالدين أو بالدنيا ، لا ينبغي له أن يروم الخروج منها بنفسه ، ويعارض حكم وقته ، فيحدث فيه غير ما أظهر الله فيه كمال تقدم في قوله^(٤) : ما ترك الجهل شيئا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه « مع الشرط المتقدم ، وهو ألا يكون في ذلك مخالفة أمر ، أو ارتكاب نهى ، فينبغي له أيضا ألا يعارض حكم الوقت ، ويطلب من مولاه أن يخرج منه ، ويستعمله فيما سواها ؛ لأن هذا من التخيير على الله تعالى ، ولا خيرة له في ذلك ، بل ينبغي له حسن الأدب معه ، وإيثار مراده به على اختياره هو ، وحينئذ يتحقق بحال يتعرف فيها محبة الله تعالى ، وإرادته له ، فيستعمله استعمالا

-
- (١) يخرجك من حالة : المراد : حالة موافقة للشرع ، دينية كطلب العلم ، أو دنيوية كالصناعة .
(٢) ليستعملك فيما سواها : لتوهك أن غيرها أرق منها ، وأن ما أنت فيه عائق عن نهوضك لحضرته .
(٣) لو أرادك : أى أحبك ، وجعلك سبحانه من أهل إرادته ومحبه وخصته .
استعملك من غير اخراج : أى استعملك استعمالا محبوبا عنده ، بأن يوفقك للأعمال الصالحة ، من غير اخراج من الحال التى أنت عليها .
وفي شرح الشيخ الشرقاوى للحكم : ولو قال لحصل لك المطلوب من غير اخراج لكان أول .
(٤) أى في قول ابن عطاء الله رضى الله عنه ، في الحكمة السابعة عشرة .

محبوبا عنده مع بقاءه على حالته التى هو عليها ، فيكون إذ ذاك بمراد الله تعالى ، لا بمراده لنفسه ، وهو خير مما اختاره .

قال فى التنوير^(١) : « يحكى عن بعضهم أنه كان يقول : وددت لو أننى تركت كل الأسباب ، وأعطيت كل يوم رغيفين ، يريد بذلك أن يستريح من تعب الأسباب . قال : فسجنت ، ثم كنت فى السجن ، يؤتى إلى كل يوم برغيفين ، فطال ذلك على ، حتى ضجرت ، ففكرت يوما فى أمرى ، فقيل لى : انك طلبت منا كل يوم رغيفين ، ولم تطلب منا العافية ، فأعطيناك ما طلبت . فاستغفرت من ذلك ، ورجعت الى الله تعالى ، فاذا بباب السجن يقرع ، فتخلصت ، وخرجت . قال فيه : فتأدب بهذا أيها المؤمن ، ولا تطلب أن يخرجك من أمر ، ويدخلك فيما سواه ، اذا كان ما أنت فيه ، مما يوافق لسان العلم ، فان ذلك من سوء الأدب مع الله تعالى .

فاصبر ، لئلا تطلب الخروج بنفسك ، فتعطى ما طلبت ، وتمنع الراحة فيه ، فرب تارك شيئا ، وداخل فى غيره ، ليجد الثروة والراحة — فيتعب^(٢) ، وقبول بوجود التعسير عقوبة لوجود الاختيار « أه كلامه فى التنوير ، وهو كالتفسير لما ذكره ها هنا ، فلذلك أورده .

تعقيب

قال « ابن عجيبة » فى ايقاظ الهمم فى شرح الحكم « ص ٦٤ : « من آداب العارف الاكتفاء بعلم الله ، والاستغناء به عما سواه ، فاذا أقامه الله تعالى فى حالة من الأحوال — فلا يستحققرها ، ويطلب الخروج منها الى حالة أخرى ، فلو اراد الحق تعالى أن يخرج من تلك الحالة ، ويستعمله فيما سواها — لا يستعمله من غير أن يطلب منه أو يخرج به ، بل يمكث على ما أقامه فيه الحق تعالى ؛ حتى يكون هو الذى يتولى إخراجه كما يتولى إدخاله :

« وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق »^(٣)

(١) التنوير فى إسقاط التدبير : لابن عطاء الله السكندرى .

(٢) فى نسخة « فتعب » وذلك أقرب الى السياق .

(٣) من آية ٨٠ من سورة الاسراء .

هذا اذا كانت الحالة موافقة للشرع كما تقدم ، أما اذا كانت الحالة غير موافقة للشرع فيجب على المريد - المبادرة ، وطلب الانخارج منها ، والانتقال الى غيرها ، كما قيل :

فإن أقامك عظيم المنه	في عمل موافق للسنة
فهو مقامك الذي يليق بك	فلا ترم خلافه بشهوتك
لو شاء ربنا العظيم المالك	ومن له التصريف في المالك
لكنت في المطلوب من غير طلب	فارض بحكم الله والزم الأدب
وان أقامك هواء الطبع	في عمل مخالف للشرع
فبادر الخروج لا تماطل	واقطع بسيف العزم كل حائل

الحكمة العشرون

قال ابن عطاء الله :

« مَا أَرَادَتْ هِمَّةٌ سَالِكٌ^(١) أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا إِلَّا وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ الْحَقِيقَةِ^(٢) الَّتِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ ، وَلَا تَبْرَجُ^(٣) لَهُ ظَوَاهِرُ الْمَكُونَاتِ إِلَّا وَنَادَتْهُ حَقَائِقُهَا^(٤) : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ^(٥) فَلَا تُكْفُرْ . »

قال ابن عباد :

السائر الى الله تعالى يتجلى له في أثناء سلوكه أنوار ، وتبدو له أسرار ، فان أرادت همته أن تقف، عندما كشف لها من ذلك ، لا اعتقاده أنه وصل الى الغاية القصوى ، والنهاية من المعرفة — نادته هواتف الحقيقة : المطلوب الذي تطلب أمامك ؛ فجَدَّ في السير ، ولا تقف ، فان تبرجت له ظواهر المكونات بزينتها ، فمال الى حسنها وجمالها — نادته حقائقها الباطنة ، انما نحن فتنة فلا تكفر ، وغمض عينيك عن ذلك ، ولا تلتفت إليه ، ودم على سلوكك وسيرك . واعلم أنه مادامت لك همة واردة — فأنت بعد في الطريق لم تصل ، فلو فنيتم عنهما لوصلت .

(١) همة السالك : هي القوة الباعثة له على السير ، ووقوفها مع الشيء : اعتقادها أن ما وصلت اليه هو الغاية أو فيه الكفاية .

(٢) نادته هواتف الحقيقة : هواتف : جمع هاتف ، وهو ما يسمع صوته ولا يرى شخصه .
أى قالت له بلسان الحال : الذى تطلبه أمامك ، فلا تقف .

(٣) تبرجت له : أظهرت له زينتها . ظواهر المكونات : ما كساها من الحسن والحكمة (وفى شرح العارف بالله الشيخ زروق : « ظواهر المكونات »)

(٤) حقائقها : نورها الباطن ، وهو تجلى المعنى فيها ، ونادته حقائقها : أى بواطنها بلسان الحال .

(٥) فتنة : ابتلاء واختبار . فلا تكفر : أى فلا تفتن بنا ، ولا تقف عندنا ، فتحجب بنا عن معرفة الله .

وما أحسن قول الشيخ أبي الحسن الششتري في هذا المعنى^(١)

ولا تلتفت في السير غيراً فكل ما سوى الله غيرٌ فاتخذ ذكره حصناً
وكل مقام لا تُقَم فيه أنه حجاب فجَدَّ السَّيْرُ واستنجد العونا
ومهما ترى كل المراتب تجتلي عليك فحلَّ عنها فَعَنٌ مثلها حُلْنَا
وقل : ليس لي في غير ذاتك مطلبٌ فلا صورةٌ تُجَلَى ولا طَرْفُهُ تُجَنَى
وقد رأيت لسيدى أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه كلاماً حسناً مناسباً لما ذكره
المؤلف رحمه الله تعالى هنا من الترقى في الأحوال ، وظهور النقص في رؤية الكمال
فرأيت أن أذكره ههنا بنصه ، لما فيه من سنن الفوائد ، وشريف المقاصد .

قال رضي الله عنه : اعلم أنك إذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله
تعالى — فعليك برفض الناس جملة ، إلا من يدللك على الله تعالى بإشارة صادقة ،
وأعمال ثابتة ، لا ينقصها كتاب ولا سنة ، وأعرض عن الدنيا بالكلية ، ولا تكن
ممن يُعرض عنها ؛ ليعطى شيئاً على ذلك ، بل كن في ذلك عبد الله ، أمرك أن ترفض
عدوه ، فإن أتيت بهاتين الخصلتين : الاعراض عن الناس ، والزهد في الدنيا ، فأقم
مع الله بالمراقبة ، والتزم التوبة بالرعاية والاستغفار والانابة والخضوع للأحكام
بالاستقامة .

وتفسير هذه الوجوه الأربعة : أن تقوم عبداً لله فيما تأتى وما تذر ، وتراقب قلبك .
ألا يرى قلبك في المملكة شيئاً لغيره ، فإن أتيت بهذا نادتك هواتف الحق من
أنوار العزة : أنك قد عميت عن طريق الرشd ، من أين لك القيام مع الله تعالى
بالمراقبة ، وأنت تسمع قوله « وكان الله على كل شيء رقيباً »^(٢) .

(١) يقول عنه صاحب طبقات الشاذلية الكبرى : أنه العالم الوزير والاستاذ الجليل الكبير وسلطان الواصلين :
سيدى أبو الحسن على بن عبد الله الششتري الأندلسي المغربي الشاذلي كان أبوه أميراً لقرية « ششتر »
ونشأ في عز ورفاهية ، ثم اتجه إلى الله سبحانه وتعالى وجاهد وارتاض وكتب الشعر ، وكانت له سياحات
كثيرة ، وورد مصر واستوطن دمياط وصار مرابطاً بها إلى أن توفى سنة ٦٨٨ هـ .

(٢) من آية ٥٢ من سورة الأحزاب .

فهناك يدرك من الحياء ما يحملك على التوبة مما ظننت أنه قريب .
فالتزم التوبة بالرعاية لقلبك : ألا يشهد ذلك منك بحال ، فتعود الى ما خرجت عنه ،
فان صحت هذه منك نادتك الهواتف أيضا من قبل الحق تعالى : التوبة منه بدت
والانابة منه تتبعها ، واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك ، فهناك تظهر
أوصافك ، فتستعيد بالله منها ، وتأخذ في الاستغفار والانابة ، والاستغفار طلب الستر
من أوصافك بالرجوع الى أوصافه ، فان كنت بهذه الصفة ، أعنى : الاستغفار
والانابة — ناداك عن قريب : اخضع لأحكامي ، ودع عنك منازعتي ، واستقم مع
ارادتي برفض ارادتك ، وانما هي ربوبية ” تولت عبودية “ وكن عبدا مملوكا ،
لا تقدر على شيء ، فمتى رأيت منك قدرة وكتلك اليها ، وأنا بكل شيء عليم ،
فان صح لك هذا الباب ولزمته — أشرفت من هناك على أسرار ، لا تكاد تُسمعُ
من أحد من العالمين .

تعقيب

الوقوف بالمهمة على شيء دون الحق حرمان ، والاشتغال بطلب ما يقرب الى
الله كرامة من الله ورضوان ، فاشتغال النفس بالطلب له مفتاح كل خير .
وأبيات الششتري تشير الى التنبيه على عدم الوقوف مع المقامات والكرامات ، ففي
ذلك كفر لحق المنعم ، وشكر النعم يكون بالاقبال على المنعم ، إذ إن المعروف
لا يتناهى ، فالمعرفة به لا تتناهى في الدار الآخرة ، فضلا عن الدار الدنيا .
فعلى المسلم أن يجد في الطلب ، وأن يلتزم حسن الأدب .

الحكمة الحادية والعشرون

قال ابن عطاء الله :

” طَلَبُكَ مِنْهُ ^(١) — اتِّهَامٌ لَهُ ، وَطَلَبُكَ لَهُ ^(٢) غَيْبَةٌ مِنْكَ عَنْهُ ، وَطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ ^(٣) — لِقَلَّةِ حَيَاتِكَ مِنْهُ وَطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ ^(٤) لَوْجُودِ بَعْدِكَ عَنْهُ ”

قال ابن عباد :

الطلب الذى يتصور من العبد على أربعة أوجه ، وكلها مدخولة معلولة : طلبه من الله ، وطلبه له ، وطلبه لغيره ، وطلبه من غيره .

مما قاله ” ابن عجيبة “ فى ايقاظ الهمم فى شرح الحكم :

- (١) طلبك منه : يكون بالتضرع والابتهال
- (٢) طلبك له : يكون بالبحث والاستدلال
- (٣) طلبك لغيره : يكون بالتعرف والاقبال
- (٤) طلبك من غيره : يكون بالتعلق والسؤال

وحاصلها أربعة : طلب الحق ومنه طلب الباطل ، وكلها مدخولة عند المحققين أما طلبك منه — فلو وجود تهمتلك له ، لأنك انما طلبته مخافة أن يهملك ، أو يغفل عنك ، فانما ينيه من يجوز منه الاغفاء ، وانما يذكر من يمكن منه الاهمال .

” وما الله بغافل عما تعملون “ (النمل ٩٣) — ” أليس الله بكاف عبده “ (الزمر ٣٦) .
وقال ﷺ : يقول الله تعالى : ” من شغله ذكرى عن مسألتى — أعطيته أفضل ما أعطى السائلين “
وأما طلبك له — فهو دليل على غيبتك عنه ، فلو حضر قلبك ، وغبت عن نفسك ووهمك — لما وجدت غيره :

أراك تسأل عن نكد وأنت بها وعن تهامة هذا فعل متهم
وأما طلبك لغيره — فلقلة حيائك منه ، وعدم أنسك به .
وأما طلبك من غيره — فلو وجود بعدك عنه ، إذ لو تحققت بقربه منك ، وهو كريم — ما احتجت الى سؤال غيره ، وهو لثيم .

فطلبه من الله — تهمة له ، اذ لو وثق به في ايصال منافعه اليه من غير سؤال —
لما طلب منه شيئا .

وطلبه له — غيبة عنه ، اذ الحاضر لا يطلب .

وطلبه لغيره — قلة حياء منه ، اذ لو استحيا منه — انقبض عما يكرهه له من
طلبه لغيره ، ومن حق الحياء منه — ألا يذكر معه غيره ، ولا يؤثر عليه سواه ،
وطلبه من غيره — لوجود بعده عنه ، اذ لو كان قريبا منه — لكان غيره بعيدا عنه ،
فلا يطلب منه .

فالطلب كله عند الموحدين العارفين معلول : سواء كان الطلب متعلقا بالحق
أو بالخلق ، الا ما كان من الطلب على وجه التأدب والتعبد ، واتباع الأمر ، وإظهار
الفاقة والفقر ، فحينئذ تزول العلة عنه .

تعقيب

طلبك من الله تعالى — وأنت معتمد على الطلب ، معتقد أنه لولاه لما حصل
مطلوبك — اتهام له تعالى بأنه لا يرزقك الا بالطلب .
أما اذا كان الطلب على وجه التعبد ، امثالاً لقوله تعالى : ” ادعوني استجب
لكم ” فلا يكون معلولا ، وبهذا يجمع بين طلب الدعاء ، والنهي عنه .
وكذلك طلبك له ، بأن تطلب قربك منه ، والوصول اليه بعملك — غيبة منك
عنه ، اذ الحاضر لا يطلب ، وهو تعالى أقرب اليك من حبل الوريد .
وكذلك طلبك لغيره — من الأعراض الدنيوية أو المراتب الأخروية — لقلة
حيائك منه ؛ اذ لو استحيت منه — لم تؤثر عليه سواه .
وكذلك طلبك من غيره — غافلا في حال الطلب عن مولاك — انما يكون
لوجود بعدك عنه ، اذ لو كان قريبا منك — لكان غيره بعيدا عنك .
فالعارفون لا يرون غير الله تعالى ، فطلبهم ليس من المخلوق في الحقيقة ، وان
كان منه بحسب الظاهر .

الحكمة الثانية والعشرون

قال ابن عطاء الله :

« مَا مِنْ نَفْسٍ ^(١) تُبْدِيهِ ^(٢) — إِلَّا وَلَهُ قَدَرٌ ^(٣) فِيكَ يُمَضِّيهِ »

قال ابن عباد :

الأنفاس أزمنة دقيقة ، تتعاقب على العبد ما دام حيا ، فكل نفس يبدو منه ظرف لقدر من أقدار الحق تعالى ، ينفذ فيه كائنا ما كان ، فإذا كانت جزيئات العبد ودقائقه قد استغرقتها أحكام الله تعالى وأقداره ، وكان جميع ذلك يقتضى منه حقوقا لازمة من حقوق الله تعالى ، يقوم بها ، وهو مطالب بذلك ، ومسئول عنه ، وعن أنفاسه التى هى أمانة للحق عنده — لم يبق له اذا ذاك مجال لتدبير أمور دنياه ، ولا محل لمتابعة شهوته وهواه .

تعقيب

تشير الحكمة الى ضرورة التسليم بكل ما يجرى به القدر والقضاء ، فاذا علمت أيها الانسان أن أنفاسك ، قد عمها القدر ، ولا يصدر منك ولا من غيرك الا ما سبق به علمه ، وجرى به قلمه — لزمك أن ترضى بكل ما يجرى به القضاء ،

(١) النفس : بفتح الفاء : جزء من الهواء يخرج من باطن البدن فى جزء من الزمن

(٢) تبديه : تظهره بقدرة الله تعالى .

(٣) القدر : هو العلم السابق للأشياء قبل أن تظهر ، وهو علم أوقاتها وأماكنها ومقاديرها وعدد أفرادها ، وما يمرض لها من الكيفيات ، وما ينزل بها من الآفات .

قدر : أمر مقدر ، ناشئ عن قدرته تعالى .

يمضيه : أى ينفذه كائنا ما كان .

واذا كانت الانفاس معدودة ، فما بالك بالخطوات والخطرات ، وغير ذلك من سائر
التصرفات . والله در القائل :

مشيناها خطا كتبت علينا ومن كتبت عليه خطا مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

الحكمة الرابعة والعشرون

قال ابن عطاء الله :

« لَا تَسْتَغْرِبُ^(١) وَقُوعَ الْأَكْدَارِ^(٢) ، مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، فَإِنَّهَا مَا أَتَرَزَّتْ إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ وَصَفِهَا^(٣) ، وَوَاجِبُ نَعْتِهَا^(٤) » .

قال ابن عباد :

جعل الله تعالى الدنيا دار فتننة وابتلاء ، ليعمل كل أحد فيها على مقتضى ما سبق له ، ويوفى جزاءه في الدار الآخرة ، قال الله تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة^(٥) » . وعمل كل واحد فيها إنما هو مخالفة شهوات نفسه ، أو موافقتها ، وذلك لا محالة ، يستدعى وجود محبوب ، أو مكروه ، بفعل أو بترك ، فمن ضروريات الدنيا وجدان المكاره ، والمشاق فيها ، فتقع الأكدار ، بسبب ذلك أيضا ، فحاصل الدنيا أمور وهمية ، انقادت طباع الناس اليها ، وهي لا تفي بجميع مطالبهم ، لضيقها وقتها وسرعة تقضيها وتفلتها ، فتجاذبها بينهم ، فتكدر عيشهم ، ولم يحصلوا على كلية أغراضهم ، كما قيل في المعنى .

(١) الاستغراب : تصوير الشيء غريبا ، حتى يتعجب منه .

لا تستغرب وقوع الأكدار : لا تعد وقوع الأكدار أمرا غريبا .

(٢) الأكدار : كل ما يكدر النفس ويؤلمها .

ما دمت في هذه الدار : مدة كونك في هذا الدار .

ما أترزت : ما أظهرت .

(٣) مستحق وصفها : ما تستحق أن توصف به .

(٤) واجب نعتها : ما يجب أن تنعت به .

(٥) من آية ٣٥ من سور الأنبياء .

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجُوعَ
أراها وإن كانت تُحِبُّ كأنها سحابةٌ صيف عن قريب تقشعُ
فلا يستغرب وقوع امثال هذا ، فانه ما ظهر منها الا ما هو مستحق وصفها ،
وواجب نعتها ، من وجدان المكاره التي هي ذاتية لها .

قال بعض الحكماء : لولا أن الدنيا مبنية على المكاره — لجعلت منفعة .
وسياتى التنبيه على الحكمة فى هذا عند قوله : انما جعلها محلا للأغيار ، ومعدنا
لوجود الأكدار ، تزهيدا لك فيها .

وفى بعض الحكايات المنقولة عن جعفر الصادق رضى الله عنه ^(١) ، أنه قال :
من طلب ما لم يُخلَقْ أتعب نفسه ، ولم يُرزَقْ ، فقليل له : وماذاك ؟ قال : الراحة
فى الدنيا ، وفى معناه أنشدوا :

تطلب الراحة فى دار العنا خاب من يطلب شيئا لا يكون
وقال بعض البلغاء : ملتمس السلامة — فى دار المتالف والمعاطب — كالمتمرغ
على مزاحف الحيات ، ومداب العقارب .

وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ^(٢) : الدنيا كلها غموم ، فما كان منها
فى سرور فهو رُبْحٌ .

وقال الامام الجنيد رضى الله تعالى عنه : لست أستبشع ما يرد على من العالم ؛
لأنى قد أصِلْتُ أصلاً ، وهو أن الدنيا دار هم وغم وبلاء وفتنة ، وأن العالم كله
شر ومن حُكْمِهِ أن يتلقانى بكل ما أكره ، فان تلقانى بكل ما أحب فهو فضل ،
والا فالأصل هو الأول .

(١) جعفر الصادق : هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر زين العابدين بن الحسين الهاشمى القرشى سادس
الأئمة الاثنى عشر عند الامامية . كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة فى العلم ، أخذ عنه جماعة
منهم : أبو حنيفة ، ومالك . ولد بالمدينة المنورة سنة ٨٠ هـ ٦٩٩ م وتوفى بها سنة ١٤٨ هـ — ٧٦٥ م
(انظروفيات الأعيان ، والاعلام للزركلى)

(٢) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهزلى : من أكابر الصحابة : علما وعقلا وقربا من رسول
الله ﷺ وهو من السابقين الى الاسلام ، وكان خادما لرسول الله ﷺ ، ورفيقه فى حله وترحاله
وغزواته . كان عمر رضى الله عنه يقول عنه : انه وعاء مليء علما . توفى بالمدينة المنورة فى خلافة
عثمان رضى الله عنه ، عن نحو ستين عاما (الاعلام للزركلى)

وقال أبو تراب رضى الله تعالى عنه : ياأيها الناس : أنتم تحبون ثلاثة أشياء ، وليس هي لكم — تحبون النفس ، وهى لهواها ، وتحبون الروح ، والروح لله ، وتحبون المال ، والمال للورثة .

وتطلبون اثنين — ولا تجدونهما : الراحة والفرح ، وهما فى الجنة .
فالواجب على العبد : ألا يوطن على الراحة فى الدنيا نفسا ، ولا يركن فيها الى ما يقتضى فرحا وأنسا ، وأن يعمل على قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : « الدنيا سجن المؤمن ^(١) .
فتوطن العبد على الحن فى دنياه — يهون عليه ما يلقاه ويجد السلوان عند فقدان ما يهواه ، كما قيل فى المعنى :

يمثل ذو الـلب فى لـبه شـدائـده قبل أن تنـزلا
فان نـزلت بـغـتة لم ترعه لما كان فى نفسـه مُـثـلا
رأى الأمر يُفـضى الى آخر فصـيـر آخره أولا
وذو الجهـل يأمن أيامه وينسـي مصارع من قد خلا
فإن دهمته صروف الزمان ببعض مصائبه اعـولا
ولو قدم الحزم فى نفسه لعلمـه الصبر عند البـلا
فليتقـ المريد ما يـردُّ عليه من ذلك بالصبر والرضا والاستسلام عند جريان القضاء ،
فعن قريب إن شاء الله — ينجلي الأمر ، ويستوجب من الله تعالى جزيل الأجر ،
والله تعالى ولى التوفيق .

قال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله تعالى عنه : قال لى أبو سليمان الدارانى :
جوع قليل ، وعرى قليل ، وذل قليل ، وصبر قليل ، وقد انقضت عنك أيام الدنيا .
وأعلم أن ما ذكرناه من الصبر هو جماع كل فضيلة ، وملاك كل فائدة جزيلة ،
ومكرمة نبيلة . قال الله تعالى : ” وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما
صبروا “ ^(٢) .

(١) ” الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر “ رواه الامام احمد ، ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة
رضي الله عنه .

(٢) من آية ١٣٧ من سورة الأعراف .

وقال تعالى : ” وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا “^(١)

وقال عز من قائل : ” إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب “^(٢)

وفي وصية رسول الله ﷺ ، لابن عباس رضى الله عنهما : ” إن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين — فافعل ، وإن لم تستطع — فاصبر ، فإن فى الصبر على ما تكرهه خيرا كثيرا “

واعلم أن النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، واليسر مع العسر .
وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه — لرجل : إن صبرت مضى أمر الله ، وكنت مأجورا ، وإن جزعت قضى أمر الله ، وكنت مأزورا .

وقال على رضى الله عنه : الصبر مطية لا تكبو ، وسيف لا ينبو .
وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أفضل العدة الصبر عند الشدة .
وفى بعض الأخبار : انتظار الفرج بالصبر عبادة .

وقد قال الشاعر :

ان الامور اذا انسدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتجى
لا تياسن وان طالت مطالبة اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
فمن جعل الصبر معتمده فى نوازله ، واعتده من أعظم عدده ، ووسائله — فهو مصيب فى رأيه ، منجح فى سعيه ، ومن جزع من المصائب واضطرب عند وقوع النوائب — كان عاملا فيما يزيده ضرا ، ويكسبه وزرا ، ويفوته أجرا ، وناهيك به خسرا ، كما قيل :

واذا تصبك مصيبة فاصبر لها عَظُمَتْ مصيبة مبتلى لا يصبر^(٣)

(١) من آية ٢٤ من سورة السجدة .

(٢) من آية ١٠ من سورة الزمر .

(٣) صحة البيت :

واذا أتتك مصيبة فاصبر لها عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر
وذلك لأن ” اذا “ من أدوات الشرط غير الجازمة .

وقد جاءت هذه الرواية فى شرح الحكم للشيخ محمد بن مصطفى بن أبى العلا .

وكما قيل أيضا :
وعوضت أجراً من فقيد فلا تكن . فقيدك لا يأتي وأجرک يذهب

تعقيب

من ضروريات الحياة الدنيا — وجود المكاره والمشاق فيها ، لأن الله تعالى — جعلها محلاً للأغيار ، وموطناً لوقوع الأكدار ؛ تزهيدا فيها ، وقد أشار الى هذا المعنى الامام جعفر الصادق فيما نقل عنه ، وكذلك ابن مسعود ، رضى الله عنهما وقد سبق ذلك .

ولذا سميت ” الدنيا “ ووصفت بالدناءة والخساسة ، والدنو ، فعمرها قصير ، ومتاعها قليل ، وآفاتنا غزيرة ، ومن وطن نفسه على ذلك — وجد الراحة ، وكان دهره كله عافية ، ومن نظر الى غير ذلك — أتعب نفسه ، ونغص حياته ، وكلف الأيام ضد طباعها ، كما قال الشاعر أبو الحسن التهامي :

طبت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقدار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

الحكمة الخامسة والحشرون

قال ابن عطاء الله :

” مَا تَوَقَّفُ ^(١) مَطْلَبٌ ^(٢) أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ ^(٣) ، وَلَا تَيْسَّرُ ^(٤) مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ
بِنَفْسِكَ ^(٥)“

قال ابن عباد :

من أنزل حوائجه بالله تعالى ، والتجأ إليه ، وتوكل في أمره كله عليه — كفاه كل مؤنة ^(٦) وقرب عليه كل بعيد ، ويسر عليه كل عسير ، ومن سكن الى علمه وعقله ، واعتمد على قوته وحوله — وكله الله الى نفسه ، وخذله ، وحرمه توفيقه ، وأهمله ، فلم تنجح مطالبه ، ولم تيسر مآربه ، وهذا معلوم على القطع من نصوص الشريعة ، وانواع التجارب . قلت : وكلام المؤلف رحمه الله تعالى في هذه المسألة عام : يتناول كل مطلب من المطالب الدينية والدنيوية ، التي مآل أمرها الى الدين ، وأشرف تلك المطالب ، وأكثرها قواطع ، ومعاطب — أخذ المريد في سلوك سبيل التوحيد ، ففيه التعلق بالله تعالى أحق وأصوب ، وفي جميع جزئياته ، فالرجوع الى الله تعالى — أولى وأوجب .

(١) التوقف : الحبس والتعذر ، وتوقف : تعسر .

(٢) المطلب : ما يطلب قضاؤه ، والمراد مطلب من مطالب الدنيا والآخرة

(٣) أنت طالبه بربك : أى بالاعتماد عليه ، والتوسل اليه .

(٤) التيسير : التسهيل .

(٥) أنت طالبه بنفسك : أى وأنت معتمد على حولك وقوتك ، غافل عن الله .

(٦) المؤنة : والمؤونة : القوت . وما يدخر منه ، والجمع : مؤن ومؤونات .

فلا جرم كان من رأى السديد ، والامر الأكيد أن يخصه من ذلك العام ،
وأن يفرد عقيب هذه المسألة بمزيد من الكلام فلذلك قال :

تعقيب

العاقل لا يعتمد على حوله وقوته ، غافلا عن الله ؛ حتى لا تتعسر مطالبه ،
فاذا عَرَضَتْ لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة ، أردت أن تُقضى لك سريعا —
فاطلبها بالله ، ولا تطلبها بنفسك ، فانك اذا طلبتها بالله — تيسر قضاؤها ، وإن طلبتها
بنفسك — صعب قضاؤها .

قال تعالى ” ومن يتوكل على الله فهو حسبه “^(١) أى كفيه كل ما أهمه .
وقال تعالى : ” قال موسى لقومه استعينوا بالله وأصبروا ، إن الأرض لله يورثها من
يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين “^(٢) فكل من استعان بالله ، فصبر في طلب
حاجته — كانت العاقبة له ، وكان من المتقين .

(١) من آية ٣ من سورة الطلاق .

(٢) آية ١٣٨ من سورة الاعراف .

الحكمة السادسة والعشرون

قال ابن عطاء الله :

« مِنْ عَلَامَاتِ^(١) النَّجْحِ فِي النَّهَايَاتِ^(٢) — الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ^(٣) تَعَالَى فِي الْبِدَايَاتِ^(٤) » .

قال ابن عباد :

للمريد بداية ونهاية ، فبدايته حال سلوكه ونهايته حال وصوله ، فمن صحح بدايته بالرجوع الى الله تعالى ، والتوكل عليه ، والاستعانة به ، كما ذكرنا — أفلح وأنجح في نهايته ، وكان وصوله الى الله تعالى ، فأمن عليه من الرجوع والانقطاع .

قال بعض المشايخ : ما رجع من رجع الا من الطريق ، ولو وصلوا ما رجعوا ، ومن لم يصحح ذلك بما ذكرناه من تعلقه بالحق ، وفراره اليه من نفسه والخلق — انقطع ورجع من حيث جاء .

قال بعض العلماء : من ظن انه يصل الى الله تعالى بغير الله — قطع به ، ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه — وكل الى نفسه .

فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره — الاستعانة بالله تعالى على ما هو بسبيله ، ولا يرى حول نفسه ولا قوتها في كثير من عمله — ولا قليله — فهذا هو أساس السلوك الذي يبنى عليه قواعده .

(١) النجح : بضم النون ، أى : الظفر بالمقصود .

(٢) النهايات : جمع نهاية ، ونهاية الشيء : تمامه .

(٣) الرجوع الى الله : أى : بالتوكل عليه ، والاستعانة به .

(٤) البدايات : جمع بداية ، وبداية كل شيء : أوله .

تعقيب

هذه الحكمة تخصيص للحكمة السابقة ، وتتميم لمعناها ، وشرح لها ، فمن صحح بدايته — بالرجوع الى الله تعالى ، والتوكل عليه في جميع أموره — نجح في حياته ، ووصل الى مطلوبه . ومن لم يصحح بدايته — انقطع عن الوصول ، ولم يبلغ في نهاية أمره — المأمول .

فاذا توجهت همتك أيها المريد — الى طلب شيء ما ، وأردت أن ينجح مسعاك — فارجع الى الله في بداية طلبك ، وانسلخ من حولك وقوتك ، وقل كما قال ﷺ : ” إن يكن من عند الله يمضه “

فلا تحرص عليه ، ولا تهتم بشأنه ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلو اجتمعت الانس والجن على أن ينفعوك بشيء ، ولم يقدره الله لك ، لم يقدرُوا على ذلك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يقدره الله عليك ، لم يقدرُوا على ذلك .

” جفت الأقلام ، وطويت الصحف “ كما جاء في الحديث .

الحكمة السابعة والعشرون

قال ابن عطاء الله :

« مَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَتُهُ ^(١) — أَشْرَقَتْ نِهَائَتُهُ ^(٢) » ،

قال ابن عباد :

هذه عبارة أخرى موافقة لمعنى ما تقدم ، فاشراق بداية المريد ، برجوعه الى الله تعالى فى مهماته ، وثقته به فى ملماته ، وإشراق نهايته — الوصول الى قربته ، والحصول فى حضرته .

تعقيب

نعم من أشرقت بدايته — أشرقت نهايته ، ومن كان قليل الاجتهاد فى بدايته — لم يحصل له إشراق فى نهايته ؛ ذلك أن الإمداد بالأنوار والمعارف فى النهاية — يكون على قدر الاجتهاد فى البداية ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد ، ولكل مجتهد نصيب وبقدر المجاهدة تكون المشاهدة .

قال تعالى : ” والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ” ^(٣) ،
وقال تعالى : ” ان رحمة الله قريب من المحسنين ” ^(٤) .

(١) أشرقت بدايته : أى عمر أوقاته بأنواع الطاعات والأوراد ، وثابر على ذلك كل المثابرة .

(٢) أشرقت نهايته : أى باضافة الأنوار والمعارف عليه ، وزوال كدورات النفس ، الحائلة بينه وبين مولاه ، على وجه أتم ، حتى يظفر بالمراد .

(٣) آية ٦٩ من سورة المنكبوت .

(٤) من آية ٥٦ من سورة الاعراف .

الحكمة الثامنة والعشرون

قال ابن عطاء الله :

” مَا اسْتُودِعَ فِي غَيْبِ السَّرَائِرِ — ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ الظَّوَاهِرِ “

قال ابن عباد :

هذا بيان علامة يعرف بها حال المرید السالك ، وما تعمّر به باطنه من المزيد المتدارك ، لأن الظاهر مرآة الباطن ، كما قيل : الاسرة تدل على السريرة ، وما خامر القلوب فعلى الوجوه. يلوح أثره ، فما استودعه الله القلوب والاسرار من المعارف والأنوار لا بد وأن تظهر آثار ذلك على الجوارح ، فيستدل بشاهد العبد على غائبه — من أراد صحبته والوصلة به ، وما أشبه هذا من الأغراض والمقاصد .

قال أبو حفص رضى الله تعالى عنه : حسن أدب الظاهر — عنوان حسن أدب الباطن . فان النبي ﷺ — قال : ” لو خشع قلب هذا — خشعت جوارحه “ . وقيل لما ورد أبو حفص العراق — جاء اليه الجنيد ، فرأى أصحاب أبي حفص وقفا على رأسه ، يأترون بأمره ، لا يخطيء أحد منهم . فقال يا أبا حفص : أدبت أصحابك أدب الملوك ، فقال : لا يا أبا القاسم ، ولكن حسن الأدب فى الظاهر — عنوان أدب الباطن . قلت : وآكد من ذلك — أن يعرف المرید نفسه . ويكون من أمرها على بصيرة ولا ينخدع بما يتوهمه من صلاح سريرته دون علانيته ، فمن ادعى بقلبه معرفة الله تعالى ومحبه ، ولم تظهر على ظاهره ثمرات ذلك ، وآثاره من اللهج بذكره ، والمسارة الى اتباع أمره ، والاغتباط بوجوده ، والاستبشار عند يقين شهوده ، والفرار من القواطع الشاغلة عنه ، والاضراب عن الوسائط المبعدة منه — فهو كذاب فى دعواه ، متخذ آله هواه . فان كان موصوفا بأضداد هذه الخصال ،

منحرفا بظاهره عن جادة الاعتدال — فهو في دعواه أكذب ، وحاله للنفاق ،
والشرك أقرب .

قال الشيخ أبو طالب المكي رضى الله عنه : قد جعل الله وصف الكافرين أنهم
إذا ذكر الله وحده في شيء — انقبضت قلوبهم ، وإذا ذكر غيره في شيء — فرحوا .
وجعل من نعوتهم أنهم إذا ذكر الله تعالى بتوحيده وإفراده بشيء — غمطوا
ذلك^(١) ، وكرهوه . وإذا أشرك غيره في ذلك — صدقوا به .

فقال تعالى : ” وإذا ذُكِرَ الله وحده اشمأزَّتْ قلوبُ ”^(٢) الذين لا يؤمنون
بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون^(٣) “ ،
وقال أيضا : ” ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وحده كفرتم وإن يُشْرَكَ به
تؤمنوا ”^(٤) .

والكفر : التغطية ، والشرك : الخلط ، أى : إنه يخلط بذكره ذكر سواه ، ثم
قال : « فالحكم لله العلى الكبير »^(٥) يعنى لا يشركه خلق فى حكمه ، لأنه العلى فى
عظمته الكبير فى سلطانه ، لا شريك له فى ملكه وعطائه ، ولا نظير له فى عبادته .
ففى دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب — أن المؤمنين إذا ذكر الله بالتوحيد ،
والأفراد فى شيء انشروحت صدورهم ، واتسعت قلوبهم ، واستبشروا بذكره
وتوحيده ، وإذا ذكرت الوسائط والأسباب التى دونه — كرهوا ذلك ، واشمأزت
قلوبهم . وهذه علامة صحيحه ، فاعرفها من قلبك ، ومن قلب غيرك ، لتستدل
بها على حقيقة التوحيد فى القلب أو وجود خفى الشرك فى السر ، إن كنت عارفا
أه .

قلت : وهذه المسأله التى تضمنها كلام الشيخ أبو طالب رضى الله عنه — من
أعظم المسائل على صدق الصادق — وكذب الكاذب ، ومن أوضح الدلائل .

(١) غمطوا ذلك : أنكروه

(٢) اشمأزت قلوبهم : ضاقت ونفرت وانقضت عن التوحيد .

(٣) آية ٤٥ من سورة الزمر .

(٤) آية ١٢ من سورة غافر .

(٥) من آية ١٢ من سورة غافر .

ولما كان قصدنا في هذا التنبيه — استغنام ذكر الفوائد العجيبة ، والحرص على رسم المقاصد الغريبة ، لغربة الدين في هذا الزمان الرذل^(١) ، واستيلاء الغرة ، والجهل على المنسوين إلى العلم والفضل — حسن منا إيراد هذه الكلمات على جهة ضرب المثل ، والاكتفاء بالنهل عن العلل^(٢) ، ليعمل بمقتضى ذلك مريد سالك ، ولينتهج من مناصحة ربه في دينه وقلبه — أوضح المسالك . وأنجل على هذا الأسلوب كل كلام لم تظهر لك مطابقتها ، ولم يتم في نظرك مناسبتها ؛ لتسلم بذلك من الاعتراض ، وتعلو همتك عما تولع به أصحاب القلوب المراض ، عافانا الله من ذلك بمنه وفضله .

تعقيب

أعمال الجوارح تابعة لأحوال القلوب ، وأحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن ، فمن طابت سريرته — حمدت سيرته ، وما في القلب يظهر على الجوارح ؛ لأن الظاهر مرآة الباطن :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن تحالها تخفى على الناس تعلم
دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخفى إذا عبأ

قال تعالى : « تعرفهم بسيماهم »^(٣)

وقال تعالى : « سيماهم في وجوههم »^(٤)

وقال ﷺ : « من سر سريرة كساه الله رداءها »

(١) الزمان الرذل : أى الردىء .

(٢) النهل : الشرب الأول ، العلل : الشرب الثانى : يقال : شرب عللاً بعد نهل .

(٣) من آية ٢٧٣ من سورة البقرة .

(٤) من آية ٢٩ من سورة الفتح .